
قصص
صندوق
النذور
أحمد سعيد سالم
عصير
الكتب

صندوق النذور



الكتـــاب: صندوق النذور
المـــؤلـــف: أحمد سعيد سالم
تنسيق داخلي: سندس فخري
الطبعة الأولى: يناير 2020
رقم الإيــداع: 2019/28150
I. S. B. N: 978-977-992-074-0

المدير العام: محمد شوقي
مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

صندوق النذور

وقصص أخرى

أحمد سعيد سالم



إهداء

إلى الأشياء التي لم أتعرَّف عليها يومًا، وإلى الأشخاص الذين لم أَلْقَهُم أبدًا إلا أنهم جميعًا ساهموا في عشقي للقراءة.

بينما كنّا نقبع في مخابئنا خائفين، كان العسكري شرهًا يطارد أنفاسنا اللاهثة، ينتشي حينما يفوز بأحدنا، ويكافح خلف الآخرين. مرَّت بنا السنون العتيّة؛ فغربلت طباعنا، وعبثت بأحلامنا؛ فاستأسدت الضباع منا، واستكانت الذئاب فينا، وتبدلت أدوارنا جميعًا؛ حتى استحال العساكر لصوصًا، وصارت اللصوص عساكرًا.

أما اللعبة التي جمعتنا قديمًا ... فبقيت كما هي.

الكابوس

تراودني دائمًا صورة عينيها الدامعتين، يطارد أحلامي ويقظتي مشهد اقتيادها من قِبَل الشرطة، كنت حاضرًا تلك اللحظة، نعم، كنت شاهدًا على ما حدث، ولكنني باعتباري محاميًا ورجل قانون كنت أُومن أن العدالة يجب أن تأخذ مجراها أيًّا كانت الملابسات.

قد أفزعها قفزة اللص من خلال النافذة المفتوحة إلى صحن دارها، نعم، لا أنكر ذلك، ولكنه طلب منها – بكل أدب – نقودها المخبأة، ووعدها ألَّا يؤذيها، وكان صادقًا فيما قال. كان يناديها بـ«يا أماه» حتى يستعطفها، ولكنها قامت بمراوغته، وتعلَّلت بأن الأموال في حقيبة صغيرة، أخرجت منها زجاجة عطرها الحريمي ذي الرائحة النفاذة؛ لترشه في عينيه مباشرة؛ ليسهل عليها بعد ذلك

ضربه فوق مؤخرة رأسه ضربةً غادرة فقد على إثرها وعيه، ثم نزعت حبل الغسيل؛ لتُكبِّل المسكين، وقامت بعد ذلك بالخطيئة الكبرى حينما هاتفت الشرطة، وعندما أفاق الفتى من غيبوبته، وقد أيقن أنه سقط في فخها اللعين؛ اضطر إلى مصارحتها بأنني أنا من استأجرته لهذا العمل، لم يكن خائنًا، ولكنه كان يريد أن ينجو بنفسه، أعذره في ذلك.

قامت سريعًا حينها بحلِّ وثاقه، ثم أطلقت سراحه، وكان مجيئي متزامنًا مع مجيء الشرطة التي سألتها عن اللص الذي قامت بالإبلاغ عنه؛ فتلجلجت، وتلعثمت، ولم تجد ما تقوله سوى أنها كانت تمزح معهم، يا لحماقتها! كنت واقفًا حينئذٍ، وقد كتمت ضحكاتي عندما قالت ذلك، أما الضابط فقد اربدَّ وجهه من شدة الغضب، وانتفخت أوداجه، وقام بالقبض عليها، ووَجَّهَ لها تهمة البلاغ الكاذب، وإزعاج السلطات.

حقًّا هذا ما كانت تستحقه، والعجيب أن بعد كل ذلك كانت تنظر إليَّ، وتتهمني عيناها كأنني السبب فيما آل إليه أمرها، وكأنني أنا من تعدَّيْتُ على اللص المهذب بكل

قسوة، وكأنني أنا من أبلغت الشرطة، ثم تنصلت من البلاغ. وُجِّهَتْ إليَّ أصابع الاتهام من الجميع، ولكنني لم أكترث لهم، ولكن السؤال: لماذا أنا أشعر بالذنب نحوها بعد تلك السنوات؟ والسؤال الأهم: هل أنا بعد فعلتي هذه أُعَدُّ ابنًا عاقًّا؟

الحفل

ذات مساء رائع كنت متأنقًا في أزهى ملابسي وأجملها، استغرق ذلك مني ما يقرب من الساعة أمام مرآتي ذات الشرخ الغائر في صدرها، ولكنني بحكم المعاشرة كنت أثق بها على أية حال، فكنا نتبادل معًا الآراء ونتشاور؛ حتى اتفقنا أخيرًا، ورضيت تمامًا عن مظهري، وشعرت أنني صرت نجمًا سينمائيًّا يعتلي بزهو السجادة الحمراء، بينما جميع الأعين تحيطه، حتى إن زوجتي وقفت مشدوهة تنظر إلى وجاهتي غير مصدقة كأنها تراني للمرة الأولى، وأطلق نجلي الأصغر من فمه صافرة إعجاب وهو يتأملني، وراحت سبابتي تعتصر زجاجة العطر المخبأة في دولابي؛ ليتخلل عبيرها خلايا جلدي وأنسجة ملابسي الجميلة؛ فأخذت تفوح رائحتها، وتتسرب من

منزلي؛ لتداعب أنوف المارة في الشارع، وسرت متبخترًا مسرورًا.

وعندما قابلت أحد جيراني وأنا أهبط درج المنزل لم يمنع نفسه من مصافحتي بحرارة بانحناءة مدهشة كأنه يستقبل معالي الوزير، ولم يستطع إخفاء إعجابه بأناقتي وروعة برفاني؛ فامتدحها، وحتى لا أتأخر عن موعدي اعتذرت له، وتركته وما زالت عيناه معلقةً بي من شدة انبهاره، ومراعاةً لمشاعر الناس في حَيِّنَا البائس قررت أن أسلك الشوارع الخلفية الأكثر هدوءًا من الشارع الرئيسي، ومشيت أناطح السحاب، وأعانق القمر في بهائه وعليائه؛ لشعوري أننا أصبحنا سيَّان.

ونظرًا لما أنا عليه من فخامة استثنائية؛ فلم يكن يناسبني تلك الليلة ركوب الميكروباص أو الأوتوبيس، وبناءً عليه استقللت «تاكسي» إلى وجهتي، وحينما دلفت من بوابة الفيلا شعرت بالماء المثلج ينهال فوق رأسي حينما رأيت المدعوين للحفل الذي أنا بصدد حضوره؛ تلاشت نشوتي بأناقتي وزِيِّي الفخم فجأة، وشعرت بصعلكتي بين الجموع المترفة التي كانت ترقبني بلؤم.

كان الثراء يشع من ملابسهم ووجوههم، لم أجد أبدًا ثمة مقارنة بيني وبينهم؛ حتى كادوا يسألونني: ما الذي جاء بك إلى هنا أيها الهلفوت؟ حتى إن حارس الفيلا - الذي كان بالطبع أكثر مني أناقة - ظلَّ يرمقني باهتمام، ورأيته متململًا في جلسته إيذانًا منه بانقضاضة مباغتة يقذف بي من خلالها إلى الخارج مثل كيس القمامة.

حاولت التقدم، ولكنني وجدت أنني لا شعوريًّا أقوم باستدارة هادئة ناحية الباب لأخرج محتفظًا بكرامتي، وبعد خطوات معدودة أحسست أنها أميال سمعت أحدهم يصرخ باسمي؛ فتوقفت، وعندما نظرت لمصدر الصوت وجدته أحد أبناء عمومتي صاحب البيت، رأيته مادًّا ذراعيه نحوي؛ فنظرت خلفي لأتأكد من أنه يقصدني أنا لا أحد ورائي، ولم أجد أحدًا؛ فرحت أرتمي في أحضانه كالابن الضال، قابلني بابتسامة ودودة وترحيب وحفاوة أزالوا جزءًا من حرجي، وعندما أشاد بمظهري وهندامي؛ أحسست أنني عدت للحياة من جديد، واستأذن لاستقبال بقية الضيوف، وتركني في حديقة الفيلا المُتحفة بالورود والأزهار، وتمشيت أنا وحدي أشاهد ما أعماني حرجي عن مشاهدته في أول دخولي.

كانت الأجواء مبهجة بشدة؛ فلم تقع عيني على نقيصة أو عيب، كان المدعوون كالجواهر البراقة التي لا تستطيع حدقتاك أن تقاوم لمعانها، كانت البذلات والفساتين المختلطة فيما بينها تميتني خجلًا من بذلتي التي أتفاخر بها.

على الجانب الأيسر من مبنى الفيلا حمام سباحة كبير يصلح لبطولة الأولمبياد مزود بمنطٍّ شاهق، البوفيه المفتوح الممتد بطول الفيلا تتصاعد منه روائح أطايب الطعام الشهية، كانت الفخامة عنوانًا عريضًا لكل شيء في المكان، ورأيت أفراد الخدمة مبعثرين في جميع الأركان يحملون أكواب العصائر وأطباق الشيكولاتة، وعندما دخلت إلى البيت هالني الأثاث الراقي كأنني داخل معرض لأفخم صالة موبيليا، التحف المتناثرة في جميع الأركان لتماثيل نحاسية وحيوانات محنطة، في كل زاوية وركن وُضعت زهرية ضخمة متألقة الزخارف والرسوم، وامتلأ البهو بالأعمدة المزركشة، وتدلت الثريات العملاقة من السقف، ولم تكن الحوائط أقل حظًّا؛ فقد كانت حبلى باللوحات الفنية الرائعة التي كانت تبدو أصلية.

قَدَّمَ لي أحد السفرجية صينية زاخرة بجميع أنواع العصائر؛ فاخترت أحدهم بعد حيرة؛ فقد كانت جميع الأكواب شهية، بعد دقائق أحسست بامتلاء مثانتي؛ فسألت عن الحمام، وذهبت إلى هناك، وكانت فرصة جيدة لي؛ لكي أستطلع أجزاءً أكثر روعة لم أكن قد شاهدتها في البيت، مشيت في الطرقة المؤدية إلى الحمام، ووقفت مذهولًا عندما رأيت على جانبيها لوحتين من الرخام البارز لباقات ورد مصحوبة بآيات قرآنية مكتوبة بالخط الكوفي، أما سقف الطرقة المؤدية فقد تمدد بها تمثال من الجبس لعروس البحر بجسدها الأنثوي المثير، ونصفها السفلي الذي ينتمي لفصيلة الأسماك، كانت اللوحة متقنة زاهية الألوان، ما بين البحر بزرقته، والجنيّة بشعرها الأحمر المسترسل، وذيل السمكة بقسماته متدرجة الألوان.

اشرأبَّ عنقي كثيرًا وأنا أتأمل عروس البحر؛ حتى إنني اصطدمت بباب الحمام الذي وددت أن أقضي ليلتي كلها فيه، لحسن حظي قد قاموا بتوجيهي نحو حمام الأسرة، وليس الآخر المخصص للضيوف. لم يكن هذا حمامًا،

بل كان متحفًا يستحق عمل تذاكر باهظة الثمن لمجرد ولوجه، كانت مساحة الحمام تعادل تقريبًا مساحة شقتي! نسيت بولتي ومائي المحصور وسط إعجابي بالسيراميك المتألق، وخلاطات المياه، والصنابير المذهبة، وتذكرت الحمام في بيتي؛ فضحكت بمرارة!

جلست على طرف حوض الاستحمام المستدير المصنوع على شكل قوقعة، تخيلت نفسي وأنا أتمدد به سابحًا مُنَعَّمًا بين فقاعات الصابون و«الشاور جيل»، أغني مستحسنًا صوتي، بينما يتصاعد بخار الماء ذو الرائحة الزكية الفواحة. وبينما أنا في هذه المعمعة والجنة المتخيلة؛ أفزعتني صرخات بالخارج؛ فأفقت من سكرتي، وهرولت خارجًا من الجنة، أقصد: من الحمام.

كانت الأجواء ملتهبة، ليست كما برحتها قبل رحلتي الممتعة إلى دورة المياه؛ فقد كانت زوجة صاحب البيت تتشاجر مع نجل زوجها، لم يكن شجارًا عاديًّا، ولكنها كانت تتهمه بسرقة قطعة من مجوهراتها الثمينة؛ ليشتري بها مخدرات.

ما هذا البؤس؟ بالرغم من كل هذا النعيم المقيم فإن الدنيا لا تعطي إلا إذا أخذت بنفس مقدار ما أعطت!
وقفت المرأة تجلد الفتى أمام الأغراب بسياط البذاءات؛ أقسم لها مرارًا أنه لم يرَ أسورتها هذه من الأساس، ولكنها لم تقتنع، ونسيت ما آلت إليه أحوالها، واسترجعت قاموس شتائم بيئتها الشعبية التي خرجت منها؛ مما اضطر الولد للرد على زوجة أبيه بمصطلحات نفس القاموس، وعندما تدخل الأب لينقذ ما يمكن إنقاذه؛ لم يسلم من لسان الأفعى التي لدغته باتهامات التقصير، وسوء تربية ابنه، وتدليله المبالغ له؛ فاستجاب الرجل لها، فحاول كبح جماح ولده، وعندما لم يستطع ذلك صفعه؛ فانهار الابن، وكاد أن يتطاول على أبيه، ويرد له الصفعة، لولا تدخلي أنا وبعض الحاضرين، ولكننا فشلنا في إخماد النيران المشتعلة، وعندما حاول رب الأسرة السيطرة على زوجته - التي كانت مصرَّة على استدعاء الشرطة - رفضت، وأهانته ثانية؛ فقام بتطليقها أمام الجمع السعيد.

سكتت الأصوات للمرة الأولى منذ بداية المباراة، وتكهربت الأجواء تمامًا، وعندما حاول الضيوف - وأنا

منهم – الإصلاح؛ نهرنا الرجل بشدة، وتقريبًا قام بطردنا جميعًا بشكل مباشر، وجلست المرأة تبكي، وترك الابن بيت أبيه، وخرَّ الرجل فوق أريكة حمراء قانية على شكل شفاه غليظة. للأسف لم تمهلني الظروف العسرة للتمتُّع بالجلوس عليها.

وخرجت من البيت الجميل حزينًا على ما آلت إليه الأمور، ولسوء الحظ أيضًا لم يكن البوفيه قد فُتِحَ قبل المعركة. تُرى من سيأكل كل هذا الطعام؟ أحمد الله على نعمة الفقر، حقًّا المال ليس كل شيء؛ فقد يجد الإنسان في ثروته الشقاء، وعدت لبيتي مفعمًا بالرضا.

كنت أريد أن أوقظ زوجتي وأبنائي وأعانقهم بقوة، ثم أقص عليهم رحلتي المدهشة التي تعلمت منها درسًا عمليًّا لا يُنسى في هذه الليلة التي تقلبت فيها الأحوال، وتقلب فيها مزاجي ما بين السعادة، والحرج، والدهشة، والحزن، ثم الرضا بقضاء الله.

ولكن لا بأس، سوف أخبرهم غدًا في الصباح؛ فقد كان الجميع نائمًا، أما أنا فأول ما فعلته أنني دخلت حمامي؛

لأقضي فيه حاجتي؛ لأنني لم أقم بذلك هناك في حمامهم الفخم!

وبعد ذلك أخرجت من جيبي الأسورة الألماس التي سطع بريقها في الآفاق؛ لأبتسم مهنئًا نفسي، ثم أخلد إلى فراشي راضيًا تمامًا عن كل ما جرى في هذه الليلة المدهشة.

المتهم العاشر

لم أتمالك نفسي من الغضب وأنا أقرأ تلك الأبيات المبتذلة، لم أعرف أية واسطة جبارة، وأية سلطة أرغمت الموقع الإلكتروني الشهير على نشر هذه التفاهات. شعرت بإهانتي كقارئ متابع لهذا الموقع الإخباري الضخم. كيف تَدَنَّى مستواه إلى هذا الحد؟! كان شعرًا في غاية السوء، يعاني من كسور جَمَّة في وزنه، وضحالة لغوية تبكي الفراهيدي وسيبويه، ولا يحمل في طياته أية صور بلاغية، أو محسنات بديعية؛ مما جعلني أتحمس لكتابة تعليق، أفرغت غضبي في سطرين، وكدت أن أضغط على زر الإرسال، ولكنني توقفت، أحسست أن هذا الانتقاد لم يكن وحده كافيًا، وإنما يحتاج أن يسانده صفعة قوية تترجم مشاعري؛ ففتحت أحد الأدراج، وبعد دقائق من

البحث أخرجت كشكولًا كبيرًا اهترأت أوراقه، وأُصيبت بالاصفرار، وبعد ومضات تأملية شممت فيها رائحة الماضي اخترت إحدى القصائد المكتوبة التي كانت تحكي عن موضوع الهجر؛ لتبارز القصيدة المنشورة التي تتعرض بسطحية وسخافة لنفس الموضوع، وأضفتها إلى سطرَيِ النقد؛ لتكون مثالًا حيًّا للأدب الذي يستحق النشر، وشعرت بالارتياح بعدما نفثت غيظي، وكانت الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل؛ فأطفأت حاسوبي، واستسلمت للنوم.

في اليوم التالي، وبعد أن عدت من عملي للبيت؛ جلست أمام الكمبيوتر، ورحت أتصفح الموقع الإلكتروني كعادتي؛ لأتبين ما إن كانوا نشروا تعليقي أم أهملوه.

وانتشيت عندما رأيت تعليقي على القصيدة المزعومة منشورًا، ولكن كانت المفاجأة هي احتفاء رواد الموقع بتعليقي؛ فقد تجاوز الإعجاب الخمسمائة «لايك» بالإضافة إلى التعليقات التي تعدت الستين تعليقًا.

كانت التعليقات تحمل مديحًا هائلًا للقصيدة التي نشرتها، للدرجة التي جعلت جميع القراء ينصرفون عن

القصيدة صاحبة المنشور الأصلي، ويتحول تعليقي إلى دائرة الاهتمام والحوار؛ غمرتني السعادة، لم أكن أتوقع كل هذا، بل كان الهدف من نشر التعليق في تلك الساعة المتأخرة هو التعبير عن حالة الغضب التي انتابتني وأنا أقرأ الهراء المنشور، فلم أكن يومًا من هواة كتابة التعليقات، والمناقشات، والتواصل مع هذه المواقع.

وفي اليوم التالي تضاعفت «اللايكات» والتعليقات الإيجابية التي حملتني فوق الأعناق، وأصبح تعليقي مزارًا سياحيًّا للدرجة التي جذبت المئات من القراء الجُدُد، والكثير من الوجوه الجديدة التي لم تكن من رواد الموقع، ولا من المهتمين بما يقدمه، وإنما تصفحوا الموقع؛ بحثًا عن التعليق والقصيدة الرائعة التي نالت إعجابهم، وذلك حينما بدأت صفحات «الفيسبوك» تنشر القصيدة.

وحينما فتحت بريدي الإلكتروني وجدته متخمًا بالرسائل التي جاءت من الكثيرين؛ فأصبح لديَّ معجبون كُثُر، ولكن أغرب الرسائل كانت من إدارة الموقع نفسه.

نعم، كان الموقع الشهير يعرض عليَّ في الرسالة أن أنضم لفريقه من المحررين؛ لأنشر قصائدي لديه بمقابل مادي يتم التعاقد عليه.

سَرَتْ في جسدي كهرباء السد العالي في تلك اللحظة العظيمة، ما الذي جعل الأمر يتطور إلى هذه الدرجة بسرعة مذهلة؟! أأكون كاتبًا في هذا الموقع العملاق الذي هو في الأصل منصة إلكترونية لجريدة من أكبر الجرائد، وأوسعها انتشارًا في مصر؟ يا لها من فرصة! رددت على الفور بـ«إيميل» آخر بالموافقة على الطلب على الرحب والسعة، ولي الشرف، وبعض هذه الجمل التي لا تخلو من الرياء، ولكن بعض الرياء البسيط لا يضر في سبيل المصلحة، وأرسلت «الإيميل»، وبعدها توقفت فجأة، تعطلت عجلة النشوة، وتوقف عداد السعادة، وتجهمت، وهدأت نبضاتي، وعاودت ثانيةً قراءة «إيميل» الموقع المُرسل لي، فإن الموقع يطلب مني أن أعمل محررًا لديه لنشر قصائدي، وليس لشيء آخر، ليس لأنني عبقري، أو صاحب أعين خضراء، أو أحمل ليسانس الحقوق مثلًا.

المشكلة التي لا يعرفها الموقع أنني لست بشاعر، نعم، أنا أحب الشعر، أفهم في أوزانه وبحوره، نعم، أتذوقه، أنقد، أقرأ كثيرًا، لكنني لست شاعرًا، لا أملك الموهبة إطلاقًا، صحيح أنني لي محاولات عدة في الكتابة قمتُ بها نتيجة ولعي بالشعر، ولكنها لم تتعدَّ كونها مجرد خواطر نثرية، لا ترقى أبدًا إلى مستوى الاحتراف.

أما عن القصيدة التي جلبت لي كل هذه المنح فليست بالطبع قصيدتي. نعم، إنها في حوزتي وتحت تصرفي، ولكنني لست المؤلف، وهذا الدفتر البالي الذي أحتفظ به في درجي منذ سنوات، ذاك الكشكول الضخم الذي يحوي أكثر من ثلاثمائة قصيدة وأغنية عامية، هذا الطفل الرائع لم أكن أباه، لم أشارك بحرف واحد في مليونية الأحرف العظيمة التي تحوي كنوز الكلمات، والأحرف الأنيقة.

للأسف لم أكن أنا هذا الأديب مرهف الحس، لم أكن هذا الصائغ الذي صاغ بلآلئ كلماته هذا الحلي النفيس، لم أكن أنا ...

ولكنه كان هو، الوالد الذي أنجب هؤلاء الأبناء الرائعين، وفرح بقدومهم واحدًا تلو الآخر، وخصهم برعايته، ومنحهم قلبه وعقله لسنوات طوال، الأب لم يبخل عليهم أبدًا، بل كان يقدمهم على كل شيء في دنياه، ثم كرههم فجأة، ولعنهم، ولعن نفسه؛ لحبه إياهم، ثم تبرأ منهم جملة واحدة، ندم على أبوته لهم من الأصل، بل قرر قتلهم ثم حرقهم، تمنى لو يقتلع من ذاكرته كل خلية لكل ولد منهم، يتمنى لو يغسل قلبه من حبهم الآثم، أقدم على خنقهم بيده التي طالما حملتهم، وهدهدتهم في مهودهم. لكنه لم يستطع، حاول كثيرًا ولم يطاوعه فؤاده، كان يقول لي بأسى يصل إلى حد البكاء: إن حبهم كسرطان طال كل خلية في جسدي.

كنت أشاهد تقلباته وأنا أصفه بالجنون، كيف يقتل الأب أبناءه الغالين، كنت شاهد عيان على مولدهم جميعًا، كنت حاضرًا، بل كنت الحاضر الوحيد لاحتفالاته بمولدهم.

المصور الذي التقط بريق عبرات عينيه المهللة بقدوم كل حبيب فيهم، كنت أول من تأمل وجوههم، وقَبَّلَ

أجبنتهم، وداعبهم، كنت أشعر أنني أشاركه هذه الأبوة، أحفظ أسماء أبنائه، بل كنت أعرفهم أكثر منه أحيانًا كثيرة.

لذا حينما قرر التخلص منهم وقفت له بالمرصاد، لكن لم تفلح توسلاتي ومحاولاتي لإقناعه، ولما فشلت قررت حماية الأبناء الرائعين، وخبأتهم بعيدًا عن يديه العالقة بين القسوة والحُنُوِّ، وبين الكره والعشق.

إنه صديق عمري حسان الذي وهب حياته للأدب، ويومًا ما اكتشف أن ما وهب عمره له قلة أدب.

حسان الذي كان أرق من رأيت من الكائنات صار إرهابيًّا محترفًا، بعد أن تبرأ من شعره وقصائده، واعتبرها مجونًا وفسقًا، بعد أن تبدلت أفكاره، وشردت بعيدًا إلى حد التطرف؛ ليترك نادي الأدباء، وليلتحق بنادي الدواعش.

بعد اختفائه شهورًا طويلة استيقظت يومًا على صوره مبعثرة في الجرائد والصحف تنافس «عادل إمام»، اسمه يتردد في جميع الأماكن؛ حتى تسبب في المتاعب لكل من لهم صلة به من أقربائه من كل الدرجات؛ حتى أنا

استدعيت للتحقيق معي حينها، ثم أُطلق سراحي، ولا أستبعد أنني ما زلت تحت الميكروسكوب الأمني إلى الآن؛ بسبب صداقتي القديمة لحسان.

الكل يبحث عن المتهم العاشر في قضية تفجير خمس كنائس في نفس التوقيت بمنتهى الحرفية، القضية التي زلزلت العالم بأسره، الجميع يطلبه، ويجدُّ في البحث عنه.

انطوت صفحة حسان بالنسبة لأغلب من عرفوه حتى أخوته، فقد نسوه حفاظًا على حياتهم، ربما لم يبقَ منه سوى حسرة في قلب أمه الحانية، وهذا الدفتر العتيق.

عدت إلى هذا الكنز الذي كان قابعًا بين كراكيبي، ولم أعره انتباهًا منذ سنوات، وكأنني أهملت هؤلاء الأبناء عندما تخلى عنهم الأب! ورحت أتصفح الورقات، واسترجع ذكرياتي مع حسان عندما كان يكهربني بمكالمة عاجلة يملؤها الجنون، يطلبني على الفور؛ لأذهب له، وعندما يراني وقبل أن يصافحني يزف إليَّ مولوده الجديد، قصيدته الساخنة التي لم تبرح قريحته إلا منذ دقائق، في أكثر من مرة قمت أنا باختيار اسم قصيدته، ووافق حسان.

عندما وافقت على العرض من الجريدة؛ تحدد لي موعد مع مدير التحرير الذي استقبلني بحفاوة بالغة، ووقعت عقدي مع الجريدة.

تبدلت حياتي تمامًا، وكانت قصائدي - أو بمعنى أصح قصائد حسان - تُنشر في الموقع الإلكتروني والجريدة الورقية معًا. وبالرغم من أنها كانت جريدة إخبارية تهتم بأمور السياسة وغيرها من الشؤون العامة فإن انضمامي لفريقهم ساهم كثيرًا في رفع نسبة التوزيع، وكنت أحصل إلى جانب المقابل المادي لكل قصيدة على نسبة من الأرباح كل عدة أشهر، ومر عام وقد تركت مهنتي في المحاماة التي كانت مرهقة بلا مقابل يُذكر، بينما عملي الجديد كان خاليًا من أية متاعب تُذكر، فكل ما عليَّ أن أنتقي القصيدة من دفتر حسان، وأكتبها على جهاز الكمبيوتر، وأقوم بإرسالها إلى بريد الجريدة، وفي اليوم التالي يرسل لي البنك رسالة رائعة مبهجة مفادها دخول مبالغ مالية إلى حسابي، وبدأ اسمي تألفه الآذان، وتردده الألسن.

وذات يوم هاتفني صلاح عوض، وبمجرد أن طلب مني الحضور إلى مكتبه لم أتردد، ولم أسأله عن السبب أو التفاصيل، إنه صاحب ورئيس مجلس إدارة أكبر دور نشر في مصر، وربما في الوطن العربي، وتُقاس أهمية دور النشر عادة بالانتشار وكثافة التوزيع. وكانت هذه الدار توزع كتبها في أغلب أنحاء العالم، وعرض عليَّ الرجل طباعة أول ديوان باسمي على نفقة الدار مقابل نسبة ٣٠٪ من الأرباح، ووافقت دون جدال.

وكما قلت في السابق: لم تكن المهمة عسيرة؛ فقد جمعت ما كنت نشرته في الجريدة الذي كان قد جاوز الثلاثين قصيدة، وأضفت لهم بعض القصائد الأخرى من دفتر حسان.

وتخطفت الأيدي الكتاب، حتى إن الطبعة الأولى نفدت في الشهر الأول، وقام الدار بطباعة خمس طبعات، وبعدها طلبت مني الدار عمل ديوان آخر، ولما تدللت؛ رفعوا نسبة أرباحي إلى خمسين بالمائة بدلًا من ثلاثين؛ فوافقت.

كانت الأحداث تسير بسرعة، كنت في كل نجاح أشاهد أمامي حسانًا يبتسم لي ابتسامة أعرفها عنه، كان يستخدمها ليوبخ أحدًا يحبه، كنت أشعر أنه يراقب خطواتي، أراه أحيانًا عابسًا في وجهي، حانقًا، وكنت أراه في حلمي ويقظتي.

استضافتني إحدى القنوات التليفزيونية بعد أن ذاع صيتي، وتكرر ظهوري التليفزيوني؛ حتى إن وجهي أصبح مألوفًا لدى الناس في الشارع؛ صار البعض يستوقفني في الطريق؛ ليلتقط معي صور «السيلفي»، صار لي معجبون ومتابعون بالآلاف على صفحتي بـ«الفيسبوك»، كنت مندهشًا من تطور نجاحي الذي لم أبذل فيه شيئًا، كان المقربون مني ومنهم زوجتي تسألني: لماذا كنت أخبيء هذه الموهبة المتأججة طيلة السنوات الفائتة؟ حمدًا لله أنها لم تسألني يومًا عن ذلك الدفتر القديم الموجود بأحد أدراجي.

دُعيت إلى إحدى الحفلات التي لا يحضرها سوى علية القوم، كان حفل زفاف ابنة أحد كبار الفنانين، ودُعيت أنا بالطبع، وقابلت في هذا الحفل «شمس إيهاب» المطرب

الكبير الذي كان يحيي الحفل، وعندما ذهبت لمصافحته والتقاط الصور بجانبه مثل بقية الضيوف همس في أذني طالبًا مقابلتي، وحدَّد لي مدير أعماله ميعادًا في مكتبه، والطلب كان كما توقعت، إنه يريد مني أغنية من أعمالي يضمها لألبومه الجديد، تعللت في البداية أنني لا أكتب سوى شعر الفصحى، ولكنني وعدته بالمحاولة، كنت دائمًا أحاول أن أبتعد عن شبهة سرقة هذه الأعمال، لم يكن أحد يعرف أنني لدي في شعر العامية جواهر وكنوز لا تقل عمَّا قدمته سلفًا في شعر الفصحى؛ فكان حسان – حفظه الله – يجيد اللونين، ويحبهما معًا؛ فكان لا يفرق بين أبنائه، يحبهم جميعًا، وكنت حين أفاضل بين قصيدة وأخرى يقول لي بفخر، وعيناه تلمعان: كلهم أبنائي.

لكنه للأسف ترك أبناءه ليرعاهم غريب، ترك أرضه التي رواها بدمه وعرقه؛ ليحصد ثمارها غيره، هو الملوم لا أنا، فلولاي لكانت هذه القصائد رمادًا.

وبعد أيام ذهبت لمقابلة «شمس إيهاب»، وفي جعبتي ثلاث أغنيات متلونة الموضوعات؛ ليختار منهم واحدة، ولكن كانت المفاجأة أنه انبهر بهن جميعًا، واشتراهن مني بمائة ألف جنيه.

وعندما أُذيعت الأغنيات في ألبوم شمس؛ لاقت نجاحًا ساحقًا، حتى إن بعض النقاد لام عليه؛ لأن مستوى بقية الألبوم لم يرقَ إلى مستوى الأغنيات الثلاثة التي ابتاعها مني.

فقرر التعامل معي وحدي، وتوافد عليَّ نجوم الطرب في العالم العربي بعد نجاحي مع شمس إيهاب، وزاد أجري في الأغنية، وأصبحت أنا من يحدد كل شيء، أطلب الأجر الذي يناسب الأغنية من وجهة نظري، وأرفض مطربين، وأقبل آخرين حسب رؤيتي لمن يستحق هذه الجواهر، ومن لا يستحق.

وتشعبت علاقاتي في هذا الوسط الفني، وراح يتودد لي من كنت لا أحلم أن أصافحهم يومًا، وأصبحت نجمًا لامعًا تزين صوره مجلات الفن والأدب، ودُعيت إلى مهرجانات عربية، وحصلت على جوائز عديدة.

ولكن مع بزوغ نجمي كان خوفي يزيد، كان القلق ينهش قلبي بضراوة؛ فالدفتر الذي أمتلكه أوشك على النفاد، كنت أضع علامة «إكس» فوق كل قصيدة أو أغنية

أستخدمها؛ حتى امتلأ الكشكول بـ«الإكسات» التي كانت تنذر بنفاد المخزون.

خوفي هذا جعلني أتمهل قليلًا؛ فلا أفرط في هذه الأعمال بسهولة، فكنت أغالي في مهورهن؛ حتى أحصل على أكبر قدر من الأموال قبل أن تفرغ جعبتي، وكانت المركب تسير كما أشتهي، وتكدست أموالي في البنوك، وصرت مليونيرًا.

نعم، تعدى رصيدي المليون فضلًا عن فيلتي الفخمة المتخمة بأرقى الأثاث، وسيارتي الفارهة، أين أنت يا حسان؟ لو كان حاضرًا لمات كمدًا؛ فكان المسكين يشتهي شقة صغيرة يتزوج فيها، ولم أكن أنا أحسن منه حالًا؛ فقد كنت قبل هذا النعيم محاميًا بلا مكتب ولا مقر، أجوب المحاكم والمقاهي لأتسول القضايا والجنح التي تعينني أتعابها على قوت يومي، كنت قد تزوجت في شقة والدي بعد أن ابتعت حجرة نوم اشتركت في ثمنها مع عروستي، كان جميع أفراد عائلتي يتصدقون عليَّ في أية مناسبة حتى غير القادرين منهم، لم أنسَ هذه الأيام القاسية.

وعدم نسياني لهذه المعاناة جعلني أخشى العودة لها مرة أخرى، حتى وإن كنت قد سافرت بعيدًا، وقطعت الأميال والكيلومترات عن هذا المستوى الضحل إلا أنني قلق.

ماذا تفعل مليون جنيهًا في هذه الأيام الصعبة؟ هل تكفي لتأمين مستقبلي؟ هل تكفي فوائدها البنكية لسداد احتياجاتي المعيشية التي تزداد يومًا بعد آخر؟ هل تستطيع أن تؤمن مستقبل أولادي، وأن تجعلني أضمن لهم مستوى حياة كريمة تقيهم شر العوز الذي لاقيته أنا وذقت مرارته؟

لا، لم تكن المليون جنيهًا كافية لأي شيء، وإن كان في السابق حلمًا أسطوريًّا.

كان ما يقلقني أيضًا هو عودة الغائب، ظهور صاحب الفضل الأول والأخير عليَّ بعد كل ما حققته.

ماذا لو جاء حسان، وطلب مني أن أخبئه بعيدًا عن أنظار الشرطة، وإلا يفضح أمري؟ ماذا لو طلب مني أن أشاركه عملًا من الأعمال الإرهابية التي ينفذها مع رفاقه؟ ماذا لو طلب مني تمويل أحد هذه الأعمال؟

هل لي أن أرفض بعد المكاسب التي حققتها من وراءه؟

شعوري أيضًا باللصوصية يؤرقني تمامًا؛ فأنا النشال الذي يعيش على حوافظ جيوب غيره، أنا اللص، أنا الذي يحب أن يُحمد بما لا يفعل، أنا النذل الذي لم ينسب الفضل إلى أهله.

فبالرغم من النجاح الذي وصلت إليه بالصدفة البحتة؛ فقد كانت تعتمل في نفسي مشاعر قاتمة كئيبة تجعلني أفكر في الانتحار، فما الذي أوصلني إلى ذلك الجحيم؟ فبالرغم من فقري في السابق، فإنني لم أكن يومًا لصًّا، أو نذلًا، أو متسلقًا.

مرت الشهور، وبالفعل نفدت كل القصائد والأغنيات، حتى ضعيفة المستوى منها بيعت بأغلى الأثمان لوجود اسمي عليها؛ فأصبح ظهور اسمي على العمل كفيلًا بنجاحه حتى ولو كان دون المستوى.

أخذ نجمي في الخفوت شيئًا فشيئًا، كنت قد أدمنت النجومية والشهرة، أعشق صورتي في الجرائد، وتحتها

اسمي وظهوري التليفزيوني في أكبر القنوات، التصاق المشاهير بي قبل العوام، وتقربهم مني، وشراءهم وُدِّي بأعلى الأسعار.

كل هذا بدأ في التضاؤل بعد أن نفد رصيدي من الكنوز، باتت تُعقد الندوات الأدبية دون أن يدعوني أحد إليها بعد أن كنت على رأس المنتديات الأدبية والفنية، تُقام الحفلات دون أن يتذكر أحد دعوتي.

لم أحتمل هذا، لم أكن أعرف أنني أحب الظهور والنجومية إلى هذا الحد، لم أعد أحتمل هذا التجاهل الذي يُضاف بجانب مشاعري التي تشتعل بداخلي في الأصل، صار الألم يفتت أعصابي.

أحاول الكتابة، أحاكي أسلوب حسان في شعره سهل الألفاظ، لا أحتاج حاليًا أن أقدم أعمالًا عظيمة في نفس جودة الأعمال السابقة؛ فبعد شهرتي وثبات أقدامي في هذا العالم أستطيع أن أتكئ على رصيدي السابق؛ فيقبل مني الجمهور أعمالًا أنصاف الأعمال التي قدمتها سابقًا، وربما نجاحها سيفوق الأعمال الممتازة السابقة، لكنني لا أستطيع أن أكتب أعمالًا أنصاف أعمال حسان، أو حتى

أرباعها، ولا أحتمل أن أقدم عملًا مثل القصيدة السيئة التي نشرها الموقع التي كانت سببًا غير مباشر فيما أنا فيه الآن.

لم أحتمل أن يخرج أمثالي من ذواقة الشعر؛ لينتقدوا عملًا لي، ويصفوه بالابتذال أو الضحالة.

أعيش بين نيران مضرجة تحرقني أنفاسها، أصبحت في مزاج سيِّئ على الدوام، لا أحتمل تدلل زوجتي الهانم التي تعيش الآن عيشة الأميرات، لا أحتمل متطلبات أبنائي، لا أحد يعرف عذابي ومعاناتي، أحمل بين أضلعي همًّا كبيرًا شاءت الأقدار أني لا أستطيع البوح به لأحد، أحتفظ بمرضي الخبيث الذي قد يقضي على جسدي دون أن يعرف أحد.

أي لعنة هذه؟!

ذات يوم وكنت في مكتبي الذي اتخذته مقرًّا لي بعد دخولي عالم الشهرة، كان في السابق لا يخلو من المشاهير والصحافيين، أما الآن فَخَلَا تمامًا إلا مني أنا، وسكرتير، وفراش.

أشعر بالملل، فأصبحت القراءة لا تستهويني كما كانت، ولا مشاهدة الأفلام التي كنت أعشقها أصبحت تمتعني، ودخل سعيد السكرتير قائلًا:

- يوجد شخص في الخارج يُدعى «وليد عزمي» يطلب مقابلتك.

سَكَتُّ برهة، الاسم ليس بالغريب، ولكني لا أتذكره.

- يقول: إنه صاحب حضرتك من أيام الجامعة.
- دعه يدخل حالًا.

وليد أحد أبناء الأثرياء الذين كنت أحسدهم قديمًا، أصحاب المستقبل المضمون منذ الولادة، والذين لا يحتاجون لا لدراسة ولا لعمل، دخل إليَّ وصافحني بحرارة، وأنا أيضًا عانقته؛ فقد كنت جوعانًا إلى أية علاقات تشعرني أنني ما زلت حيًّا، كان بصحبته شاب يافع يشبهه، يبدو أنه ابنه،

بعد السلامات والسؤال عن الأحوال أخبرني أنه يريد مني خدمة.

- ولدى ياسر يحبك كثيرًا، وهو متابع جيد لجميع أعمالك مُذْ كنت تنشرها في «البيت الكبير».

سعدت بأنه ما زال لي معجبون، وتابع وليد أن ياسر ابنه لديه موهبة الشعر، ويريدني أن أكتشفه، وأقدمه، وأمنحه أية فرصة في هذا العالم اللامع، وناولني كشكولًا يشبه كشكول حسان، إلا أنه كان جديدًا وبحالة أفضل، وعندما تصفحته وجدت أن الفتى لا يحمل أيًّا من ملامح حسان الأدبية، ولكنه كان يملك لونًا آخر متوهجًا يفوح برائحة الشباب؛ فأبديت إعجابي بالأغاني، وقلتُ:

- حسنًا، سوف أقوم بقراءتهم، وأوافيك بالرد قريبًا.

تهلل وجه الفتى وأبيه لمجرد قبولي القراءة؛ فكثيرون من زملائي اللامعين في هذه الأحوال يمتنعون عن مجرد القراءة، ولا يقبلون صعود منافس لهم على أكتافهم؛ فلذلك تفاجأ الاثنان، وتركاني للقراءة، وكنت قد اتخذت قرارًا بمساعدة الفتى حتى أكفر عن سوابقي؛ حتى أعطي مسكنًا لضميري الذي لا تفتر آلامه.

اخترت إحدى الأغاني، وكتبتها على «الوورد»، وأرسلتها إلى «واتساب» المطرب محمد رجائي، أرسلت الأغنية دون أن أرفقها بأية شروحات أو رسائل،

ووجدته بعد دقائق يهاتفني وهو مبهور بالأغنية، وبفكرتها، وتطوري في الكتابة، وسعيد بعودتي للعمل من جديد. تطوري وعودتي! حاولت مقاطعته؛ لأشرح له أنني لست سوى وسيط، وأنني لست مؤلف الأغنية، ولكن الرجل من فرط سعادته لم يمهلني، وبعد تدفق كلمات التقدير والثناء أنهى المكالمة بأنه سيرسل لي عقد التنازل مع الشيك على مكتبي مع مدير أعماله.

كان في إمكاني مهاتفته مرة أخرى؛ لأبين له سوء الفهم الذي وقع فيه، إلا أنني في الحقيقة لم أستطع، أعجبني ثناءه وإطراءه، وجدت الفرصة أخيرًا بعد كل هذه الأشهر العجاف التي أدخلتني إلى نادي المكتئبين.

ولكن ماذا أقول للفتى؟ أصارحه بأنني أريد شراء عصارة فكره وإبداعه من أجل وضع اسمي عليها؟

كان الأمر صعبًا، ولكنني هاتفته في اليوم التالي، وطلبت منه الحضور لمكتبي، وترددت في الحديث، ولكني قلتُ:

- أحييك يا ياسر؛ فإن كتاباتك ممتازة للغاية، ولكن للأسف الشديد إن سوق الأغنية له قوانينه التي لم أحبها يومًا، ولم أكن من العاملين بها، ولكن لا فائدة؛ فالجميع يفكر بنفس الأسلوب.
- معذرة يا عمي ... فإني أعجز عن استيعاب الأمر.
- لقد اشترط المطربون بيع هذه الأغنيات باسم شاعر شهير لضمان النجاح وزيادة التوزيع، في الحقيقة لقد حاولت إقناعهم بوجهة نظري، ولم أستطع.

كانت مبادرتي جيدة وذكية؛ فأنا لم أقل له إنني أريد شراء أغانيك لتُكتب باسمي، وأتكسب منها.

ولكن الشاب فطن عقله لذلك قائلًا:

- حسنًا، فإنني لا أمانع أبدًا أن يوضع اسمك على هذه الأغنيات.

هززت رأسي رافضًا في غضب.

- لا يا ياسر، لا يا بني، لست أنا من يفعل ذلك، كيف تطلب مني أن أسرق مجهودك، وآخذ شيئًا ليس من حقي؟
- يا عمي أنا الذي أرجوك؛ فإنني منذ سنوات طوال لم أجد فرصة واحدة، والأغاني موجودة في الأدراج، لم أجد حتى من يقرؤها، سأكون سعيدًا جدًّا عندما يخرج شعري للنور، لا يهم باسم مَنْ.

تظاهرت بموافقتي على مَضَضٍ، ولكنني اشترطت لموافقتي على هذه الصفقة أن يكلمني أبوه، ويؤيد هذا الرأي، وانصرف الولد منشرح الصدر، بينما كنت أنا أتحسر عليه، كنت آمل أن يرفض، أن يعترض، ولكنه يُسَيِّرني في نفس الطريق الذي كنت قد بدأته رغمًا عني، وهاتفني والده وصديقي، وكان مؤيدًا للفكرة أكثر من ابنه؛ فتظاهرت بموافقتي بصعوبة، واتفقنا على أن يتم البيع والنشر باسمي على أن يأخذ هو نسبة من الأرباح.

وفرح كثيرًا الولد حينما كتبت له شيكًا بعشرين ألفًا، هذا المبلغ أقل من نصف ما تقاضيت أنا في أغنيته، ولكنه

حمد الله على هذا المبلغ الطائل الذي ما كان يأتيه لولا معرفة أبيه بفخامتي، يشكر الظروف التي جمعته بي، وكلما زاد شكره ومدحه؛ زاد ألمي.

وعدت مرة أخرى لمجدي السابق، وبدأت في عمل جولة على المطربين الذين كنت أتعامل معهم، ودارت الساقية من جديد، ورحت أبيع أشعار كشكولي الجديد الذي استقبله جميعهم استقبالًا حارًّا مدويًا.

كنت حريصًا أيضًا على وجود مسافات بين كل أغنية وأخرى؛ حتى لا يشك أحدهم أنني قد اشتريت هذه الأغنيات.

وتعددت العقود، وانهالت عليَّ الشيكات، واستفاد ياسر، وجَنَى الكثير من الأموال، وأهداني كشكولًا آخر، ولكنني لاحظت أن الخط فيه مختلف، الأسلوب أيضًا لا يحمل ملامح ياسر ولا طريقته في الكتابة؛ فأيقنت أنه لشاعر آخر، أنكر ياسر في البداية، وبعد أن ضغطت عليه اعترف أنه لأحد أصدقائه الذي يكتب منذ طفولته، ولا يجد فرصة يصعد من خلالها، ولا مانع لديه أن تُنشر

أعماله باسم غيره مقابل الاستفادة المادية؛ فوافقت، وتعددت الكشاكيل والأجندات، ولم أعد أشعر بما شعرت به من تأنيب للضمير في تجربتي الأولى؛ فاعتدت الأمر، وصرت أقتات على أعمال غيري من الشباب، وما ضيرهم في ذلك؟ هم يستفيدون مني، وأنا أستفيد منهم؟ فبدوني لا فائدة لهم، لا مادية ولا أدبية.

وعادت صوري تتصدر المجلات، وذات صباح رأيت صورتي في إحدى الجرائد منشورة أعلى عمود في يسار الصفحة، وفي أقصى يمينها نُشرت صورة لحسان أعلى عمود آخر، ولكن شتان بين ما كان يُكتب في الناحيتين!



السجود

اختــرق منخاراي ذلك العطر المتخلل أنسجة السجاد الممتد، فَرَّغْتُ جعبتي من جميع الأدعية، ولم يَقُمْ الإمام بالتكبير، طال السجود، وغمرت روحي سكينة قلّما وجدتها، تعمق إحساسي بالسكينة أكثر حينما انقطع التيار الكهربائي، وأظلم المسجد إلا من ضوء الكشاف الأزرق الخافت، قمت بإعادة الدعاء الذي قلته، ولكن بمزيد من الخشوع، حتى إنني سافرت بعيدًا نحو الجنة، وأنهارها الجارية، ونعيمها المقيم، وتمنيت لو بقيت ساجدًا بقية حياتي.

كان الرجل الذي بجانبي في الصف يبكي بكاءً حارًّا، فقد كان جسده ينتفض بشدة كأنه تذكر في هذه اللحظة

كافة ذنوبه وآثامه، كانت الأجواء عامرة بالإيمان، ولم يقطفني من هذه الحالة سوى حافظة نقودي.

كانت تنسل ببطء شديد من جيب بطالي الخلفي، وبالرغم من الحالة التي كنت عليها؛ فإنني شعرت بهذا الانسحاب الهادئ. كانت وكأنها تنزلق من جيبي في نعومة وانسيابية مدهشة، لم يكن في الصف الأخير بالمسجد سواي، وذلك الشيخ الباكي الذي لم يمنعه خشوعه وتذكره لمعاصيه من أن ينشلني.

وحينئذٍ وقعت في حيرتي، لم أكن أريد أن أقطع صلاتي الخاشعة المفعمة بالطمأنينة، وأيضًا لم أكن أحتمل أن أُسرق بعلمي دون عمل أي شيء، قمت بهز فخذي تعبيرًا عن رفضي لهذا التصرف، وتعبيرًا عن وعيي الكامل بما يحدث، ولكن هيهات، كان انسحاب الحافظة مستمرًا دون توقف، وكان ذلك الداهية مستمرًا في البكاء كأن أصابعه التي يسرق بها تمردت، وانفصلت عن جسده الخاشع.

وعندما شعرت أن عملية السطو تمت بنجاح، وقد فارقت الحافظة جيبي؛ قمت باستخدام مرفقي لتسديد

ضربة لهذا اللص؛ حتى صرخ صرخة مدوية، فقال الإمام: الله أكبر.

وأخذ يتأوه كأنني طعنته بسكين حادٍّ، ثم عاد التيار الكهربائي، ثم أنهى الإمام الصلاة سريعًا، والتفتُّ نحو الرجل أكيل له السباب والشتائم، وعندما أحاط بنا المصلون؛ أخبرتهم بالسرقة التي تعرضت لها أثناء السجود؛ فقاموا بالاشتراك معي في توبيخ اللص الذي كان كلما يحاول أن يقسم وينفي عن نفسه التهمة؛ يقوم أحدهم بنهره ونكزه، ولما اقترح أحد الواقفين تفتيش الرجل؛ رفض بشدة بحجة أنه مُرَبٍّ فاضل، وعندما تفحصت وجهه جيدًا كانت المفاجأة التي عصفت برأسي، إنه الأستاذ أمين.

بالرغم من الشيب الذي داهم شعره، والتجاعيد التي زحفت على ملامحه، بالإضافة إلى الدم الذي نزفه أنفه إثر ضربتي فإنني تعرفت عليه، لقد كان واحدًا من أفضل مدرسِيَّ الذين تعلمت وتربيت على يديهم في المرحلة الابتدائية.

حزنت جدًّا لذلك، أن يكون هكذا لقاؤنا الأول بعد كل هذه الأعوام، وندمت على ضربتي بالرغم من أنه لم يتورع عن سرقتي في المسجد.

تناولت منديلًا من جيبي محاولًا إيقاف النزيف الذي سببته ضربتي، ولعنت في نفسي تلك الظروف التي تحيل الشرفاء الفضلاء لمجرمين، وكان المصلون قد أحاطوا بنا مستمرين في تأنيب الرجل وتعنيفه، ولكي أرفع عنه وطأة هذا الجحيم قلت معتذرًا: آسف، حافظة نقودي قد نسيتها في المنزل، ولم أدخل بها المسجد من الأساس.

قلت ذلك، وهممت بالانصراف، إلا أن القوم استوقفوني متحفزين، وفي مقدمتهم الأستاذ أمين غير الأمين، أرادوا أن يثأروا للرجل الذي اتهمته ظلمًا دون أن أتبين، وقد نابني من الشتائم والتوبيخ ما جعلني هممت أن أغير أقوالي، وأعترف لهم أنني أحاول نجدة الرجل من براثنهم، ولكنه لص آثم، كان الأستاذ أمين يكيل لي الشتائم، وأنا أنظر إليه مبتسمًا، لسان حالي يقول له: كفى يا رجل، لقد سترت عليك، فلا تتمادَ، ولكنه لم يحفظ جميلي، وعندما اشتد الموقف؛ قررت مصارحتهم،

وقلت: إن هذا الرجل أستاذي، وقبل أن أكمل جملتي صاحوا في وجهي، وحوقلوا، وضربوا أكفهم ببعضها، وذكروني بفضل العلماء ومكانتهم، وتلا أحدهم قصيدة أحمد شوقي: قُمْ للمعلم وفِّه التبجيلا، وبكى إمام المسجد من شدة تأثره بفعلتي الشنعاء، أما الآخرون الذين لم يحوقلوا، ولم يذكروا شعرًا، أو نثرًا؛ فقد انهالوا عليَّ ضربًا مبرحًا، كنت لا أرى سوى أكفهم تهوي فوق رأسي.

وبينما أنا في أتون المعركة لمحته في أحد أركان المسجد منزويًا غير مكترث بالمولد القائم حوله، أحد أحباب الله الصغار الذي وضع حافظتي أمامه على الأرض، وكان يحمل بطاقتي، يحملق في صورتي محاولًا التعرف عليَّ.



مشروع تفريخ الإناث

طلب مني والدي أن أصطحب أخي الأصغر معي، أن أجعله شريكًا دائمًا في مجالسي اليومية، عضوًا في المؤتمرات التي أعقدها مع رفاقي، ولم يكن السيد الوالد غافلًا عن ماهية هذه الندوات المحتشدة التي تبدأ بتعاطي الحشيش وأشقائه مرورًا بمشاهدة الأفلام الثقافية، ثم تنتهي بمضاجعة الساقطات، حتى إنهم كانوا يطلقون علينا في الحي لقب «الأوباش»؛ لممارستنا لجميع أنواع الرذيلة.

الأكثر من ذلك أنه لكي يشجعني على اصطحاب أخي لعب معنا دور الراعي الرسمي، وقام بتمويل هذه المجالس، بل قام باستضافتنا في مخزنه القديم الكائن فوق سطح بيتنا.

وكان أبي رجلًا محافظًا غيورًا، أما أنا فتستهويني المغازلة منذ صباي، ولكن أجمل ما رأيت كان عينين سماويتين، تداعبهما خصلة ذهبية، ووجهًا أبيض مشربًا بالحمرة، وعنقًا مرمرية تحيطها سلسلة ذهبية رقيقة، وجسدًا بشكل الماء له كل خصائصه الانسيابية.

ولم يكن هذا وصف إحدى جميلات الحي، ولكنه كان أخي، هكذا بلا مبالغة؛ فقد ورث كل ذلك عن أمي التي كانت تفضله عني، أما أنا فقد منحني أبي صوته الخشن، وملامحه السمراء الغليظة.

أبي ... سليمان الصعيدي الذي نزح من سوهاج بائسًا؛ ليعمل بعد ذلك بَنَّاءً لدى المعلم عباس المقاول الذي زَوَّجَه ابنته التي أصبحت فيما بعد أمي.

لم تعينه ملامحه الصعيدية، ولا لهجته الصعيدية، ولا ملابسه الصعيدية على الصمود أمام تلك المرأة ... أمي.

كانت هي صاحبة الكلمة الأولى والثانية والأخيرة، فكانت قادرة على أن تحيل الصقر عندما يلج باب البيت إلى حمامة سلام بيضاء.

يضع عمامته، وجبروته، وقسوته التي عرفت عنه على عتبة بيتنا الكبير الذي هو في الأصل بيت جدي المقاول، ثم بعد ذلك يدخل البيت خاليًا من أي شيء.

عشقه لها جعل ضعفه يستمر؛ فليس الأمر كامنًا في المال، أو القدرة على السيطرة، ولكنه الحب، هو الذي لم يشعره بضعفه أمامها، ولم يجعله يثور يومًا لكرامته.

انصهر أخي في أتون الليالي الآثمة، ولكنه كان يخرج من المسرحية قبل نهايتها؛ فلا يشترك معنا في فصلها الأخير، فصلها الممتع، يتعلل كل ليلة بعلة جديدة ليترك نصيبه لنا.

عندما لاحظ أبي تكرار ذلك سَبَّهُ ووَبَّخَه بشدة، وصَرَّحَ سيادته أن هدفه الأصيل هو أن يعيش الصغير تلك التجربة الكبيرة، أن يحظى بالعلاقات النسائية التي تعطيه خاتم الرجولة، أن ينفي عن نفسه تهمة التخنث بشتى الطرق.

لم أكن أفهم مقصد أبي في البداية، بل كنت أتعجب من إصراره على إفساد هذا الغرّ، وتلويث فطرته النقية، ولكني الآن فهمت.

قبل هذه الطريقة حاول اتباع الطرق الشرعية بأن يصطحبه معه في عمله في المقاولات، ربما يصلحه التعامل مع الطوب ومجاورة الزلط، ومشاهدته لأجلاف الصعيد الأشداء، ومجالستهم، والاقتباس من فحولتهم وجلدهم.

ولم يدم ذلك سوى يومين، ثم انقطع الوالد عن المحاولة، وذلك لما وجد أنه وهو المعلم ذو المهابة سيصبح مثارًا للسخرية بين عماله؛ بسبب فتاه المدلل الذي لا يصلح إلا لأعمال المنزل.

حاول إلحاقه بإحدى صالات الجيم، ولم يستطع الجسد الرقيق مواصلة حمل الأثقال.

فلم يجد المعلم سليمان سوى طريق الأوباش؛ فكان ينتوي بعد أن يستطيع الولد إثبات ذاته في الانحراف ومصاحبة الأوباش أن يدفع به إلى المسجد ليعتدل طريقه.

وقفت تناطحه بجمالها وحليها:

- دع الولد يفعل ما يشاء، ولا ترغمه على فعل شيء لا يريده؛

فهز الغضنفر رأسه مستكينًا، وقلبه يتمزق من فرط حزنه على ولده.

حاولت في بداية مرافقتي له أن أثنيه عن لبس السلسلة الذهبية، وارتدائه «التي شيرتات» الضيقة التي تحاكي «بلوزات» البنات، حاولت إقناعه بتهذيب شعره الناعم الذهبي المسترسل فوق كتفه، ولكن كانت أمي لي بالمرصاد.

منذ فترة وأنا ألاحظ الانسجام بين أخي وبين جويدة الفتى العرباوي الذي كان يكبرنا بعدة سنوات، كان تآلفًا خاصًّا بينهما، لم يلحظ أحد ذلك سواي.

لم يحترف جويدة منذ أن أتى إلى الحضر سوى السلب والنهب، كنت أعرف ذلك بالطبع؛ لأنني كنت أحد معاونيه، لم يعرف ذلك أحد من أقراننا الدائمين، منذ سنوات ونحن نجوب تجمعات الشباب، ونقوم بالسطو المسلح عليهم، بدأ الأمر بلعبة، ولكنه مع الأيام أصبح متعة وحرفة تدر علينا الأموال الكثيرة.

علاقتي بجويدة جعلتني لا أكترث بصداقته لأخي، ولكنني كنت متشككًا في الأمر،

عندما راقبتهما وجدت ما جعلني أشعر بالغثيان؛ فكان جويدة يتحرش بالفتى، يتحسس جسده، كان ذلك عندما كان الخدر يتسلل إلى أدمغتنا، ولكنني كنت واعيًا لتلك اللحظة التي يختلس فيها جويدة هذه اللمسات الخفية التي تختبئ خلف الدخان الهائم والرؤوس الخافية، لم أشعر بنفسي إلا وأنا أطعن كليهما بمطواتي؛ حتى انتبه الجالسون، وطار انتشائهم، وتعالت تأوهات الضحايا وصراخهم.

لم أنسَ ذلك اليوم الذي طردني فيه أبي من البيت، وزفتني أمي بوصلة ردح شعبية سمعها أهل الحي بأكمله، أحسست للمرة الأولى أنني لست ابنهما مثل أخي، لم يأبه أحدهما إلى تبريري كأن ما حدث أمرًا عاديًّا.

أقمت عند أحد أصدقائي من خارج الحي، ومر يومان، وتدخل أحد كبار العائلة للصلح بيني وبين والدي، وعدت للبيت، وعادت الحياة إلى ما كانت عليه، وعاد أبي يطلب مني نفس الطلب، وتناقشت معه، وقال لي متوسلًا:

- اعتنِ جيدًا بأخيك، ثم تبدلت ملامحه سريعًا، وأردف محذرًا: ولكن دون أن تؤذيه.

لم أكن أستطع الرفض، وإلا سأخرج من جنة أبويَّ التي كان مفتاحها أخي الأصغر،

كنت أصطحبه معي دون أن تهمله عيناي، أتأبطه، أحيطه بذراعي، أتجنب أماكن الزحام والميادين التي تكتظ بالناس، ولا سيما الشباب، كان الخروج في الأعياد محظورًا؛ فكنت أحبس نفسي في البيت؛ حتى لا أضطر إلى اصطحابه في هذه الأيام العصيبة.

ذات يوم أَلَحَّ عليَّ أخي أن أجدد اشتراك عضوية جويدة في مجلسنا غير الموقر بعد أن كنت ألغيت عضويته من جميع المؤتمرات بعد تلك الحادثة المخجلة.

بالطبع رفضت، ونهرت أخي، نعم نهرته، ولكن طبعًا بشيء من اللين؛ إعمالًا بوصايا أبي، وتوخيًا لغضبه. وفي نفس الليلة عندما صعدنا أنا وأخي لسطح البيت وجدت جويدة في المجلس، وقبل أن أشتبك معه كان أبي يهاتفني، ويخبرني أنه قام بدعوة جويدة، ويوصيني ألَّا أتشاجر معه، وأيضًا لم ينسَ أن يحذرني من إغضاب أخي الأصغر.

كدت أنفجر من الغيظ، كل ما استطعت فعله هو التفرقة بين مجلسَيْ أخي وجويدة، كانت أعين الحاضرين تتحدث كثيرًا، صحيح لم يجرؤ أحدهم على السخرية مني، ولا من أخي، ولكن كانت أعينهم تقول الكثير.

كان أبي الصعيدي يعاني ما كنت أعانيه وأكثر، يُكوَى بنظرات جيرانه، تحرقه أعين عماله من أهل المنطقة، الجميع يتحدث، أسافل الخلق يلوكون سيرتنا في أفواههم بعد أن كنا أسياد الحي، كان ذلك خاصة بعدما فقدت أنا السيطرة على العلاقة الآثمة التي ترسخت بين أخي وجويدة الفتى البدوي.

أصبح أخي لا يحتاج إليَّ؛ فكان يخرج مع جويدة يوميًّا، كنت أشعر بالدم يتصاعد إلى رأسي، كما لو أن أختي هي التي أصبح لها boy friend.

أشعر بالعار، لم أعد أهنأ بالمجالس اليومية كما كنت، لا حظ ذلك كل من يعرفني، بعد أن فاض الكيل تحدثت مع أبي وأمي في عدم وجود أخي، وواجهتهم بما يشعرون، وبما يُقال أمامهم أو من رواء ظهورهم؛

أومأ كلاهما بتفهم الأمر والإحساس بالمشكلة، وفي اليوم التالي جمعتنا أمي؛ لتفاجئنا بالحل؛ فقد دلها أحد معارفها على طبيب أمريكي موجود في مصر يعمل على زيادة هرمونات الذكورة، ويعالج الحالات التي تشبه حالة أخي، رحبنا بالأمر أنا وأبي، واستبشرنا بتخلصنا من هذا الكابوس، بينما زمجر أخي؛ فزجرته أمي، وكانت قد اتخذت القرار ببدء العلاج، وأخبرها الطبيب بعد الكشف الشامل عليه، وعمل الفحوصات اللازمة والتحليلات أن الولد يحتاج إلى عملية؛ لعدم جدوى العلاج في حالته، ولما كانت الأموال متوفرة؛ فتحدد لها موعد قريب في نهاية الأسبوع القادم.

- ألا يكون في الغد؟

نطقت مع أبي نفس الجملة في نفس التوقيت حتى ضحكنا جميعًا على لهفتنا لحدوث ذلك الشيء العظيم.

مرت الأيام الثقيلة، ونحن نمني أنفسنا بتلك اللحظة الخالدة عندما أرى أخي قد صار رجلًا مثلنا، وفي اليوم الموعود كنت قد استيقظت متأخرًا؛ فاستقللت «تاكسي»

وذهبت للمستشفى، وهرولت إلى حجرته بعد علمي بخروجه من حجرة العمليات، وعندما دخلت كان أبي جالسًا على كرسي جلدي بجانب الباب محيطًا رأسه بذراعيه، بينما كانت أمي تجلس على طرف السرير، ويقف جويدة يدخن بجانب النافذة، واندهشت لوجوده، وقد تبدد اندهاشي لما رأيت أخي فوق السرير، وقد ظهرت به تضاريس جديدة لم أعهدها من قبل، وبدا كأنه امرأة متكاملة الأركان، ونادتني أمي بابتسامة تحدٍّ عريضة.

- ألا تقول لأختك: حمدًا لله على سلامتك.

فاستدرت وأغلقت باب الحجرة بالمفتاح، وتناولت مطواتي بهدوء، وأقبلت مُرَحِّبًا بهم جميعًا.



الوسواس

الرجل هو القائد المسيطر، هو الزعيم الملهم، الرجل هو هتلر، هو غاندي، هو الحاكم والسلطان، يجب أن يقوم بكل مهام القيادة في جميع الأشياء، يتزعم، ولا يكون أحد أفراد الرعية بأية حال من الأحوال، كانت تلك هي قناعتي طيلة الثلاثين ونيف عامًا الماضية، أما منذ خمس سنوات تقريبًا قد بدأت أتخلى عن ذلك المبدأ بعض الشيء، وقررت أن أقلص بعض الصلاحيات الموكلة إلي؛ فأذنت لزوجتي أن تقود السيارة، بينما أجلس أنا بجوارها أملي عليها التعليمات، قيادتها لا بأس بها، ولكنها لم ترقَ أبدًا إلى قيادتي الرشيدة، فحقًّا النساء لا يصلحن للقيادة، ولكنها الشيخوخة؛ فقد أجبرني ضعف بصري مؤخرًا على ذلك، لم أتقبل الوضع بسلاسة في

البداية حتى وجدت ضرورة لذلك، وكنت أجد سلوايَ في توجيهها أثناء القيادة، وزجرها عند الخطأ، كنت أجد في هذه المهمة عوضًا عن جلوسي خلف المقود مباشرة.

كنت حريصًا دائمًا أن أحتوي امرأتي، أن أكون عارفًا عالمًا بكل تحركاتها وسكناتها، حتى أفكارها قد فرضت على نفسي ضرورة معرفة ما يدور في خلدها حتى أكون دائمًا أنا القائد، استيقظنا مبكرًا في أحد الأيام الصيفية. كنا قد وضعنا الترتيبات لهذا اليوم منذ عدة أسابيع حين قررت أنا أن نسافر إلى الإسكندرية لزيارة ابننا خالد المقيم هناك، وبعد أن تناولنا فطورنا معًا هرعت إلى السيارة القابعة أمام البيت، قمت بالتأكد من منسوبات المياه وزيت المكابح، وفحصت مؤشر البنزين، واطمأننت على الإطارات الأمامية والخلفية، وتأكدت من وجود «الإستبن» في حقيبة السيارة بالرغم من أنه لا يفارقها، ولكنني دائمًا ذو شغف بأدق التفاصيل، ثم جلست خلف عجلة القيادة، وقمت بإدارة السيارة لأقوم بحميها؛ لأعدها لسفرنا الطويل، كنت قد تابعت بالأمس النشرة الجوية لأتأكد من اعتدال طقس اليوم، وبعد دقائق كانت أمامي تحمل حقيبة متخمة

بملابسنا، وحقيبة أخرى صغيرة تحوي بعض الأطعمة التي جهزتها لتكون مؤنتنا خلال ساعات السفر.

كما تعودت منذ أعوام، فكنت لا آكل حتى تأكل هي؛ حتى يطمئن قلبي، لم أجد منها ما يثير شكوكي، ولكنني للأسف أصبحت هكذا، أعلم أنني مريض بالوسواس القهري، ولكن لا أحد سوايَ يعلم بمرضي العضال هذا؛ فلم تكن تعلم زوجتي أنني لا أتناول لقيمة من طبق الطعام أبدًا حتى أراها تأكل منه، لم تعلم أنني طالما تتبعتها حين ذهابها إلى عملها، فعلت ذلك مئات المرات دون أن تشعر هي.

أجهزت على شطيرة الفلافل التي أعشقها عندما رأيتها أولًا تأكل من شطائر الفلافل، ثم كان البيض.

لم يكن البيض الذي في السندوتشات، ولكنه البيض النيئ الذي تهشم فوق زجاج السيارة الأمامي ليصيبنا بالذعر، وكأن السماء كانت تمطر بيضًا، فتصرفت المرأة الخرقاء دون تعليمات مني، واستخدمت مساحات السيارة، وقد زادت الطين بلة؛ فقد تمدد البيض ليرسم

لوحة سريانية صفراء بعرض الزجاج بأكمله، وفقدت هي الرؤية تمامًا، وفقدت السيطرة على المقود، ولكنني كنت أصرخ فيها: لا تتوقفي، لا تتوقفي، أكملي المسير، ولكنها لم تطع أمري، كان الموقف مربكًا جدًّا.

توقفت السيارة بعد أن أصدرت العجلات زمجرة مخيفة، ثم رأيته بجانبي عبر الزجاج، فيلًا ملثمًا بلثام أسود لا يُظهر سوى أنفه وعينيه، فتح الباب الأيمن للسيارة وأنزلني، وحدث ذلك معها عن طريق زميله الآخر الملثم أيضًا، ولكنه كان دونه في الضخامة. عندما نزلت من السيارة ونظرت للرجل الضخم اشتممت رائحة الأدرينالين تفوح من غدته الكظرية؛ يتقاذف الخوف من عينيه كالبرق، كانت يديه التي تحمل الرشاش الآلي ترتعش بقوة، من المؤكد أنهما غير محترفين، الطريق الصحراوي كان خاليًا من السيارات في تلك الساعة المبكرة إلا قليلًا من السيارات التي تنطلق غير عابئة بشيء حولها.

قال الرجل الآخر إنه لن يؤذينا، ولكنه سوف يحتفظ بالسيارة، واتجها معًا ليركبا العربة، ويتركانا، ولم يكونا قد فطنا إلى عبوة الـ(self defence) التي قد التقطها من درج

(تابلوه السيارة) سريعًا أثناء نزولي، وخبأتها في جيبي، قمت بتوجيه العبوة إلى عينَيِ الضخم حامل السلاح؛ ليصيبه السائل المنطلق كسم الثعبان؛ فيصاب بتشنجات تفقده الوعي، أما الآخر فقد ظَلَّ يجري بعيدًا بمجرد أن رأى سقوط زميله، فصدرت منى قهقهة انتصار وفخر، وتذكرت يوم العبور العظيم منذ خمسين عامًا مضت.

عادت زوجتي نحو السيارة تحاول نزح البيض الذي تجمد فوق الزجاج، وهممت أنا لمساعدتها؛ لنرحل سريعًا، ولكنني لم أنسَ أن أحتفظ بسلاح الرجل؛ حتى لا يستخدمه عندما يفيق ويعيد الكرة، وعندما دنوت منه لألتقط سلاحه الملقى على الأرض؛ لاحظت حاجبيه اللذين لاحا لي عندما تزحزح اللثام قليلًا، كانا غليظين جدًّا ومميزين، أيضًا عيناه الضيقتان عسليتا اللون قد استوقفتاني وجعلتاني أتشكك؛ مما دفعني إلى نزع اللثام الأسود؛ لأرى ملامح ذلك اللص، كانت المرأة تصرخ لتستحثني على الإسراع بالرحيل، وعندما كشفت عن وجهه كانت المفاجأة، إنه ذلك الفتى الطائش، تذكرته، هو ابن أخيها المدلل الذي لم أره منذ أعوام طويلة، وإنما

الصفات الوراثية المشتركة بينه وبين عمته هي التي ميزته، ولفتت انتباهي، كانت قد قالت لي يومًا: إنه أصيب في حادثة سيارة، ولا يتحرك إلا بالعكاز، وقد صدقتها لبلاهتي، ولم أتحرَّ الخبر كالعادة، وأدركت حينها الفخ الذي نُصِب لي ببراعة فائقة؛ فقد دفعها حرصي الدائم وإحكام قبضتي على الأموال أن تستولي هي على السيارة بمعاونة الفتى، ويبدو الأمر وكأنه حادثة سرقة عادية، وبالتأكيد قد استعان هذا الولد بأحد أصدقائه الأوباش؛ ليقوما معًا بهذا السطو، تذكرت عدم إطاعتها لأوامري على غير العادة حينما أمرتها ألَّا تتوقف عندما هاجمنا اللصان، الآن فهمت لماذا لم تتوقف، واسترجعت موقفها عندما تركت السيارة، لم تكن خائفة بالشكل الكافي؛ فكانت متماسكة إلى حد ما رغم صعوبة الموقف، كيف لم أشك بها وقتها؟ حقًّا أنا حسن النية، بل أنا غرٌّ ساذج، نظرت إليها وأنا أستجمع أركان تلك الخطة، وكانت ترتجف؛ شعرت أن لعبتها قد انكشفت الآن، كنت مصوبًا السلاح نحوها في تلك اللحظة، ودون أن أشعر ضغطت زناد الرشاش؛ لينطلق منه رصاصة استقرت في قلبها الخائن؛ لتسقط بجوار السيارة،

فطنت سريعًا إلى فعلتي، لقد قتلتها، ولن يصدقني أحد. لن يقدروا أنني كنت في حالة دفاع عن النفس، أليست هي أحد هؤلاء اللصوص؟ أليست هي المخططة لكل ذلك؟ ولكنني بالتأكيد سأتعرض للظلم كما يحدث لي دائمًا، قمت سريعًا بمسح بصماتي، ووضعت السلاح بجانب اللص الراقد، وهاتفت النجدة، ولم أنسَ أن أطلب الإسعاف، وجاءت سيارة الإسعاف من نقطة طبية قريبة، ونقلت القتيلة إلى المستشفى، ثم جاء الضابط ليأخذ أقوالي التي كنت رتبتها كما حدث بالفعل مع تغيير بسيط في الأحداث، إن الضخم قتل زوجتي عندما كانت ستفر بالسيارة، ثم استطعت أنا تخديره بعد ذلك، حاول اللص أن ينكر جريمة القتل بعد أن أفاق، ولم يفصح بقرابته للمرأة، كان يريد أن يحتفظ بالسر؛ حتى لا يشوه صورتها حتى بعد موتها، واستأذنت من ضابط التحقيق، وأسرعت نحو المستشفى لأطمئن أن المرأة قد ماتت بالفعل؛ لأن في إنقاذها هلاكي، وقد فوجئت أن الطبيب يزف لي خبر نجاتها؛ حيث إن الرصاصة قد استقرت بجوار القلب، تَبًّا لي، لقد أخطأت التصويب. يا لحظي

العسر! كان يجب أن أتمرن جيدًا لمواجهة مثل هذا اليوم، وعندما كنت أمام حجرة العمليات أتظاهر بالقلق على الخائنة التي بالداخل، حضر شقيقها مضطربًا، ربما يعرف هو بتلك الملعوب الجبان، كنت قد قمت بالاتصال به عندما حسبتها ماتت، ولم يحضر الرجل وحده، وإنما كان برفقته ذلك الشاب الضخم ذو الحاجبين الغليظين، والعينين العسليتين الضيقتين، يرتدي منظارًا طبيًّا أنيقًا، متأبطًا عكازًا يتوكأ عليه.

مهرجان الكآبة

ارتفعت أصوات العويل لتزلزل الآفاق، وجلجلت الصرخات حتى تصدعت الأبنية، وتشققت الجدران. كنت أنا ابنه الوحيد، ولكن لحظي التعس جاءت مجموعة كبيرة من نساء العائلة؛ ليقمن بتقديم واجب العزاء، ولكن على طريقتهن الخاصة؛ فكنَّ يشفقن على المرحوم لعدم إنجابه ابنة تنوح على فراقه وتولول، فجئن مجاملات للقيام بهذا الدور العظيم، وكأن كل واحدة منهن قد ادخرت جميع كآبتها وأحزانها لتنفقها دفعة واحدة في هذا اليوم المشئوم.

لم أكن أنا أحسن حالًا منهن؛ فقد كان قلبي يتمزق لفراق أبي، كنت أنهار محاولًا السيطرة على شلال عبراتي

المتدفقة من جهة، ومحاولًا تهدئة بكاء النساء المتشحات بالسواد من جهة أخرى.

لم يسكتهنّ صوت الشيخ الحصري ولا غيره من المقرئين، ولما أحسسن بالملل يتسرب إلى مجلسهن المقبض قامت إحداهن دون سابق إنذار بلطم وجنتيها السمينتين بسرعة أذهلتني، وبغلٍّ أسود متأصل؛ حتى تورم وجهها، وكادت الدماء أن تتفجر من خلاياه؛ فغارت منها فتاة أخرى، وقررت أن تتفوق عليها؛ فأخذت تشق ملابسها السوداء، وتتمرغ بجسدها الممتلئ على الأرض كأنها تصرع، ثم راحت تنافسهما امرأة ثالثة بالشروع في تكسير أثاث البيت بشكل هستيري، وبدأت بالزهرية اليتيمة في البيت، وطرحتها أرضًا لتتهشم وتحدث صوتًا هائلًا لم يسمع بالطبع وسط الصرخات والعويل المدوي، حتى ثارت ثورتي، وقمت بسبهن، ولكنهن لم يتوقفن؛ فجئت بحذائي لأمزقه فوق رؤوسهن؛ لأوقف حلقات المسلسل التراجيدي، ولما شعرن بتنمري هدأن، واكتفين بالنحيب.

كنت أحتاج في هذه اللحظات العسرة لمن يواسيني، ويخفف عني مصابي، حتى جاء مخلص الحانوتي صديق

طفولتي، وكان برفقته رجلان أشيبان، أحدهما كان يتكئ على عكاز، جاءا معه للقيام بتغسيل الميت وتكفينه، ودخل الثلاثة حجرة أبي، وجلست أنا في الخارج؛ لعدم قدرتي على تحمل المشهد المؤلم.

كانت أصوات النواح مستمرة لا تنقطع، حتى أنني كنت أصرخ فيهن بين كل دقيقة وأخرى؛ حتى أخمد عويلهن المتواصل.

وبعد دقائق قليلة سمعت جلبة بالداخل، ثمة شيء يرتطم بالأرض، ولما هرعت للحجرة كان الرجل صاحب العكاز ممددًا على الأرض بعينين شاخصتين، وقد فارق الحياة، لم يستطع تحمل النظر إلى الجثة بالرغم من ممارسته لهذا العمل أكثر من مرة.

وتجمدنا حائرين نحاول التصرف، وبينما كنا شاردين أتت على إثري إحدى الكئيبات الجالسات بالخارج، ولما رأت الميت الجديد دعت أخواتها لمشاهدة لعنة الموتى التي حلت ببيتنا العامر، وتجدد صراخهن الذي أثقب طبلتَيْ أذني؛ حتى اضطررت حينئذٍ لخلع حزام

بنطالي، وجلدهن بكل ما أوتيت من قوة؛ حتى إنهن فررن من أمامي كالدجاجات المذعورات، ولكنهن للأسف لم يتركن البيت، وظللن يَنُحْنَ ويبكين في الخارج.

قام مخلص بالاتصال بأهل الميت، ثم شرع بمعاونة صاحبه الذي لم يمت بعد في تغسيل أبي، وأثناء ذلك حضر أبناء المتوفى، رجلان مكفهران حزينان، وفتاتان رقيقتان، وبمجرد أن دخلتا البيت نزعتا عن وجهيهما الرقيق ذلك القناع، وكأنما مستهما الصاعقة؛ لتطلقا معًا صرخات هزت الحي بأكمله، لتلتحم معهما نساء عائلتي اللاتي كن يكتمن نواحهن وصراخهن بصعوبة بالغة، ولكنهن وجدنها فرصة، واشترك الجميع في نوبة من النواح والنحيب؛ حتى إنني كدت أكره أبي الذي رأيت بموته كل هذا الجحيم!

ثم كان الخلاف في الداخل عندما وجد أهل المتوفى أباهم مُلقى على الأرض بجوار الجدار كأنه لقيمة خبز سقطت من المائدة؛ فنشبت المعركة بين مخلص وصاحبه كفريق، وابنَيِ الميت كفريق آخر، وعندما تدخلت لتهدئة الموقف كان من نصيبي لكمة لم أعرف مَنْ صاحبها، أرقدتني بجوار الموتى.

أيقظتني دلاء المياه لأجد نفسي محاطًا بالوجوه المحملقة، بينما كان أبي فوق خشبة الغسل منعمًا بالموت، والمغسل الميت كما هو بجوار الحائط.

نهضت في صعوبة، ولم تزل أثر اللكمة تؤلمني، واتفقنا على تجهيز الميتين معًا؛ ليخرجا من بيتي إلى مثواهما الأخير.

وتوافدت النساء الغريبات على بيتنا دون استئذان؛ حتى استحالت الشقة لسرادق عزاء نسائي، ولم أجد مكانًا حتى للوقوف عندما احتللن البيت بأكمله بما في ذلك المطبخ ودورة المياه، حتى الشرفة لم تسلم منهن، وليتهن جلسن صامتات، ولكن كانت الشجون والأحزان تعربد في الدنيا بأكملها.

لم ينجُ منهن كيلوات الشاي، ومخزون السكر، والقهوة في البيت، وتراصت الفناجين والأكواب في كل الأركان.

كنت أحث مخلصًا وصاحبه على سرعة إنهاء هذا الأمر؛ لشعوري بالاختناق وسط تلك الأجواء القاتمة، وجدت مخلصًا خارجًا من الحجرة، وأبلغني أن حماته

قد أُصيبت بجلطة في المخ، وتم حجزها في المستشفى، ويجب أن يذهب الآن على أن نتقابل في المقابر، وانصرف سريعًا، ثم بعث لي بشابين؛ ليساعدا العجوز الذي بالداخل. حتى أنت يا مخلص!

عربة الموتى سوداء كئيبة، تشبه الموت في كآبته وهيبته. لحسن الحظ كان المسجد قريبًا، وكنا قد أتينا عند أذان العصر. الرجال في عائلتي قليلون، ولم يحضر أحد من أصدقائي للجنازة، وقفت النساء متشحات بالسواد خارج المسجد تشبه زجاجات الكوكاكولا، وقد حملت النعش مع الرجال الموجودين بعد أداء صلاة الجنازة، وجرت إحدى الكئيبات لتركب في السيارة لتستوطن المقعد الوحيد بجانب السائق، وكنت أنا في قمة الإعياء؛ فقد كان اليوم عصيبًا بحق.

وقفت على المقابر، وقد بعث مخلص بمساعديه إلى هناك، وكانوا منهمكين في تجهيز المدفن، وقبل أن يقوموا بإنزال أبي في القبر جاءت آخر المعزيات، وكانت عمتي التي سافرت من بلدها في الزقازيق، وأتت لحضور الجنازة.

ومن لا يعرف عمتي فهي تزن نحو المائة وخمسين جرامًا أو يزيد، ساعدها ذلك قدرتها على إطلاق صرخات كادت أن توقظ الموتى من رقدتهم، وجاءت تعدو نحوي مخلفة حولها عاصفة ترابية أعمت أبصارنا، وقد ارتعبت من هول المنظر، ولكن لا مهرب، واقتربت مني، واحتضنتني بعنف حتى كادت تسقطني أرضًا، ثم انكبت على الجثمان تقبله في حرارة، وتبكي بحرقة، وتكلمه، وتذكر محاسنه، وتؤنبه على قلة زيارته لها، ثم قررت أن تراه، وهمت بفك الكفن؛ فنهيناها عن ذلك، وذكرناها بحرمة الميت، ولكنها لم تأبه لنا؛ فقمنا بمحاولة يائسة برفعها من على الميت، ولكنها وكزتنا بذراعيها القويين؛ فأوقعتنا على مؤخراتنا، وحاولت أنا ثنيها عن ذلك وزجرها، ولكنها دفعتني بقوة؛ فابتعدت أمتارًا، ونجحت في النهاية في مبتغاها، وكانت المفاجأة أن الميت كان أبي، كان وجه أبي، نعم، كانت الجنازة جنازة أبي، ولكن أن يكون الجثمان لأبي؛ كانت تلك الصاعقة التي كادت تسقطني مغشيًّا عليَّ.

فقد نسي البلهاء من المغسلين أن يبدلا جسد أبي بالدمية التي أعددناها أنا ومخلص لتدفن مكانه، وقد كان

ذهاب مخلص لحماته في ذلك التوقيت هو من أوقعنا في تلك الكارثة.

وجاء مخلص يهرول من بعيد، ومن الواضح أنه قد اكتشف الخطأ الجسيم، وقال وهو يلهث:

- معذرة أيها السادة؛ فلقد قمنا بخطأ بسيط، وسوق أقوم بإصلاحه في الحال؛ فإن هذا الميت لا يخصكم.

حملق الجمع في وجهه، وقالت عمتي:

- كيف لا يخصنا أيها الأحمق؟! إنه أخي إبراهيم، كيف لي ألَّا أعرفه؟
- يا حاجة، أوكد لك أنه لا يخصكم، صدقيني، فإن الأموات تتغير ملامحهم دائمًا عقب الوفاة.
- كنت صامتًا، لا أجد ما أقوله، ولم أشترك في حوارهما كأن الموضوع لا يعنيني؛ حتى صرخت سر البلاء في وجهي.
- لماذا أنت صامت يا ابن أخي؟ أليس هذا والدك، أم نسيت ملامحه؟

سكت محرجًا، ثم قلت لها هامسًا:

- يا عمتي، إن الحانوتي أكثر دراية منا بهذه الأمور.

صرخت المرأة هذه المرة صرخة رجت المقابر، وظلت تتحدث عن عقوق الوالدين، وجحود الأبناء؛ فقلت لمخلص هامسًا:

- لماذا لا تقوم بدفنه الآن، ثم تعود لتأخذه؟
- الزبائن الذين اشتروا في عجلة من أمرهم، يريدون اللحاق بالطائرة بعد الحصول على بضاعتهم.
- ماذا يعني ذلك يا مخلص؟ دعهم ينتظرون قليلًا!

وارتفع صوتي بجملتي الأخيرة غاضبًا؛ فنهضت تتفحص وجهي غير مصدقة، وراحت تصفعني بكفيها الضخمين، وتسبني.

فقال مخلص:

- كفى يا حاجة، تستطيعين فعل هذه الأشياء في البيت، أما الآن فلا يوجد أمامنا وقت كافٍ.

- ماذا تعني بأنك لا تملك وقتًا كافيًا؟ لن يتحرك أخي من هنا إلا إذا صرت أنا جثة هامدة.

كان المشهد عبثيًّا بامتياز، ووقف الجميع غير مصدق ما يحدث، وعندما فرغ صبر مخلص قال:

- اسمعي إِذَنْ يا أماه، الحي أولى من الميت، وابن المتوفى أمامك الآن، إن قمتِ بسؤاله؛ فسيخبرك أنه حصل على ثمن جثة والده مُنذ ما يقرب من شهر.

فجر مخلص قنبلته النووية، ولم يعرف أحد أنني قد خسرت في مقامرة مبلغًا كبيرًا كتبت به شيكًا، وكان الثمن جثة أبي لتوقعي دنو أجله؛ لأسدد بها ديني وإلا سوف أُقْتَلُ، أو أُسجن بقية عمري على أحسن تقدير.

أخذت المرأة تلطم وجهها، وتبكي، وتصرخ، وتكلم نفسها، وتتكلم مع الميت ومع الموتى الراقدين حولنا، وتتحدث مع الهواء كأن عقلها قد ذهب، ثم سقطت بجانب أخيها، والتف الحاضرون حولها مذعورين، وجَثَا مخلص على ركبتيه؛ ليقوم بدوره بما أنه المتخصص الوحيد في هذا الجمع، وبعد عدة محاولات من إلصاق

أذنه بقلبها السمين، وقياس النبض بساعة يده؛ نهض حزينًا يخفي فرحته، ضاربًا كفيه ببعضهما.

- لا حول ولا قوة إلا بالله! البقاء لله وحده!

وهمس في أذني قائلًا بصوت شره:

- بذلك يصبح فيما بيننا اتفاق جديد. أهنئك يا صديقي؛ فلديك هديتان في يوم واحد!

من سيربح المليون دولار

في منتصف الشارع كان يسير هائمًا، لا يعبأ بطوفان العربات المندفعة، حتى إن قائدي السيارات كانوا يسبونه، ولا يلتفت حتى إليهم.

ساءت حالته تمامًا، كان عقله مشوشًا، فاقدًا قدرته على التفكير، ساقته أقدامه إلى أحد البنوك الأجنبية الموجودة في وسط البلد، لا بد من التحرك سريعًا؛ فقد فرغت خزانة الوقت، لم يتبقَّ له سوى شهر، أو ربما أقل، وإما أن تموت ابنته، أو تُجرى لها عملية زراعة الكلى، وتعود للحياة.

تحاصر عينيه صورة كريمته التي كان يحلم بيوم زفافها ... ولكنه القدر، فقد علم بمرضها بعد خطبتها بثلاثة أيام، يجب أن يوفر الأموال المطلوبة بأي ثمن، وإلا انتهى هو، وانتهت أسرته، وضاع كل شيء.

لم يكن لصًّا، ولكنها الظروف، كان عمله كـ «شيف حلواني» في أحد الفنادق الكبرى قد وفر له حياة كريمة هو وأسرته، إلا أن ذلك لم يساعده على ادخار مائتين من الألوف، هم قيمة إنقاذ محبوبته، ثمن ما طلبه المتبرع لكي يضحي بقطعة من لحمه من أجل المال، يشعر أنه يحمي نفسه أولًا بتدبير هذا الأمر؛ فإن فقدان ابنته يعنى في المقابل هلاكه المحتوم.

منذ زمن وهو يمر من أمام البنك أثناء ذهابه للفندق الذي يعمل فيه، يشاهد العجائز من الأجانب الذي يخرجون بحقائب جلدية سوداء، كان يتعجب من عدم خوف هؤلاء المسنين من السرقة أو السطو، ولم يكن يتوقع أبدًا أن يقف هو هذا الموقف المخزي.

ظلَّ رابضًا أمام البنك يعاين الخارجين من بابه، منتظرًا العثور على فريسته، كان قد رسم في مخيلته الخطة بالكامل بالرغم من التخبط الذي اعتراه في الأشهر الفائتة، يعرف جيدًا مواصفات ضحيته ...

بعد فترة وجيزة من الانتظار وجده، كان كهلًا ستينيًّا قصيرًا، ضئيل الحجم، بملامح أوروبية خالصة، يحمل

حقيبة جلدية بدت أثقل من وزنه، بدا ذلك من عدم قدرته على حملها، شعر أن الحقيبة لا تحمل أقل من مليون من الدولارات، وتحمس أكثر، وهنا بدأ يتحرك وراء الهدف المنشود.

كان ما ينتويه هو مراقبة الرجل حتى الاختلاء به في طريق آمن، سار وراءه بأرجل متخبطة، يتصبب عرقًا، يموت رعبًا كلما رأى عربة شرطة، وإن قابل شرطيًّا يشعر أنه جاء ليلقي القبض عليه، حاول أن يتماسك، في اللحظات العسرة كان قد تَعَوَّدَ على قراءة آيات من القرآن، أو التمتمة ببعض الأدعية، ولكنه استحى اليوم أن يفعل ذلك وهو ذاهب للسرقة.

لحسن الحظ أن الرجل لم يكن يمتلك سيارة، ولم يركب أية مواصلات، وإلا ستكون المهمة أصعب وأكثر كلفة، إلا أنه كان يسير في الشوارع الرئيسية المكتظة بالناس، وكأنه يعرف ما ينتظره.

وبعد مسيرة طويلة انحرف العجوز يمينًا نحو أحد الأزقة الضيقة؛ فتعالت نبضات اللص، وأحس أن اللحظة قد حانت، وقبل أن يقدم على الخطوة التالية دخل العجوز

أحد البارات الصغيرة، كان يجلس بجانب زجاج البار، وكان اللص يراه وهو منتظر بالخارج.

رأى العجوز وهو يعب الكؤوس الواحد تلو الآخر بنهم شديد، حتى فرغت زجاجة الكونياك التي كانت فوق مائدته، ودفع الحساب للنادل، وخرج من البار ليجد اللص في انتظاره بعد خطوات بسيطة من البار، قام بضربه فوق رأسه ضربة مدروسة؛ ليسقط الرجل فاقدًا وعيه، لينطلق اللص بالحقيبة مسرعًا، وظل يعدو في الأزقة والشوارع ليبتعد بقدر الإمكان عن العجوز الذي سرقه.

ودون أن يفكر تعلق بأحد أوتوبيسات النقل العام غير مكترث بمعرفة وجهته، واندس بين الركاب، لا يزال متوترًا مشحونًا بالقلق والترقب، وبعد عدة محطات قرر الهبوط، وسار هائمًا في الطرقات، كان يتجنب الأماكن العامة التي قد يقابل بها رجال مرور أو ضباطًا، وحينما مر بأحد الشوارع الجانبية الخالية من البشر لاحظ ثلاثة من الأسافل توتره، وحرصه على الحقيبة؛ فحاصروه تمامًا من جميع الجهات، أحدهم وضع المطواة فوق رقبته، بينما كبله الآخران، وأخذوا منه الحقيبة، وانطلقوا دون

مقاومة تُذكر منه، حتى إنهم تعجبوا من سهولة مهمتهم، ووقف هو خائبًا، يلعن حظه العسر.

ابتعد اللصوص الثلاثة عن مكان الواقعة كما فعل من سبقهم، وذهبوا إلى وكرهم الآمن، وكانت الحقيبة مع صاحب المطواة الذي فتحها سريعًا؛ فلاحت لهم رزم الدولارات، وعندما تقدم زميلاه منه محملقين في الأموال بذهول؛ أسرع هو بإغلاق الحقيبة قائلًا:

- علينا القيام بتغيير تلك الأموال بسرعة قبل أن يُبلغ الرجل الشرطة عنها، وربما يكون لديه أرقامها.

فهتف أحدهم:

- حسنًا، سأذهب لآتي بأخي سيد.
- بذلك سوف يقاسمنا سيد في الأموال، قال الثالث.

فرد عليه صاحب الحقيبة:

- من الواضح أنه المخرج الوحيد، اذهب وائْتِ به في عجالة.

وانطلق الرجل ليستدعي أخاه تاجر العملة الذي اتفق معه على الخلاص من زميليه؛ للاستيلاء على الحقيبة،

وعاد به سريعًا ليجد أمام الحجرة زميلهم الثالث مترقبًا؛ فسأله:

- ما الذي أوقفك هنا؟
- لقد أوكل لي يوسف مهمة تأمين المكان من الخارج.

فدخل الثلاثة للحجرة، ولعنوا صاحبهم عندما لم يجدوه، بينما كانت نافذة الحجرة المطلة على سطح البيت مفتوحة على مصراعيها.

انطلق يوسف بسرعة فائقة؛ فقد تلفظ بموضوع تغيير العملة أمام صاحبيه؛ لأنه يعلم أن أحدهما الأكثر طمعًا سيدلي بدلوه، ويتبرع بالذهاب ليأتي بأخيه تاجر العملة، أما صاحبه الثالث فيعلم أنه الأكثر سذاجة؛ سيستجيب له بسهولة عندما يطلب منه حراسة الحجرة؛ ليستطيع الهرب بالحقيبة، ويفوز بها وحده.

كان يعدو في الطرقات بشكل لافت إلى أن وجد نفسه في أحد الشوارع الرئيسية أمام أحد أمناء الشرطة الذي رمقه بارتياب عندما وجده يلهث بعينيه الزائغتين؛ فقال له بصرامة:

- تعالَ هنا، افتح هذه الحقيبة.

ولكن يوسف قذف بالحقيبة باتجاه الشرطي، وانطلق يعدو دون وجهة، ولم ينطلق وراءه أمين الشرطة، وأمسك بالحقيبة، وهَمَّ ليفتحها، ولكنه سريعًا ما وضعها خلفه، وانتصب مُحَيِّيًا مسيرة موكب الرئيس التي استغرقت عدة دقائق حتى مَرَّ الموكب؛ فتنفس الصعداء، والتفت خلفه؛ فلم يجد الحقيبة!

تحرك الأوتوبيس السياحي الفاخر من الفندق قاصدًا أهرامات الجيزة، وكانت الشمس قد أوشكت على الرحيل، جلس السياح في الحافلة مبتهجين برحلتهم الممتعة إلا واحدًا، ذلك اليوناني العجوز الذي فقد حقيبته إثر خروجه من البار، كان مهمومًا مرتبكًا إلى حد كبير، ولم يكن يعلم أن حقيبته المسروقة تقبع على بعد عدة أمتار من موقعه بجانب سائق الحافلة.

كان سائق الحافلة الشاب قد التقط الحقيبة الملقاة على الرصيف وسط انشغال الجميع بالموكب الكبير عندما كان في طريقه لعمله، وعلى الفور قام بدخول أحد

الحمامات العمومية؛ ليفتح هناك الحقيبة، وهاله ما رآه من الأموال، وعندما توغل في رزم الدولارات محاولًا عدها لم يسمح له الوقت بذلك، فكان عليه التوجه سريعًا إلى الأوتوبيس؛ ظَنًّا منه أن تخلفه سوف يثير حوله الشكوك.

كان يقود الحافلة، وهو يمني نفسه بالعيش الرغد بمعية هذه الثروة التي أتته دون عناء، يتخيل القصر العظيم الذي سوف يسكنه، والسيارة الفارهة التي سوف يقتنيها، إلى أن بدد جميع الأحلام ذلك المطب الاصطناعي الذي لم يأبه له أثناء تخيلاته، ثم انتبه إلى الخطر القادم الذي كان قد نسيه في غمرة أفراحه، تذكر الكمين الشرطي القابع على بعد كيلو مترًا، يعلم أنهم لم يقوموا في أغلب الأحيان بتفتيش الحافلة، ولكنه خشي أن يوقعه حظه العسر هذه المرة في شباكهم، ماذا لو انتبه أحدهم إلى هذه الحقيبة التي بالتأكيد يبحثون عنها الآن؟ قاده عقله إلى الانحراف يمينًا نحو محطة البنزين التي رآها على أحد جانبي الطريق، انزعج مشرف الرحلة المرافق له واندهش لتصرفه؛ فالتعليمات السارية تقول إنه ليس من الممكن أن يخرج من موقعه قبل أن يكون قد أتم ملء خزانة الوقود

قبل اعتلاء السياح للحافلة، ولكنه تعلل له بضيق الوقت الذي لم يسعفه من التأكد من ذلك.

لم يكن يلوي على شيء، كان دخوله محطة البنزين فرصة لكي يفكر في حيلة ما، تظاهر أنه فقد السيطرة على عربته؛ فضغط مكابح السيارة لتسقط بعض الحقائب الصغيرة فوق رؤوس الركاب، وتسقط امرأة مسنة كانت آتية من حمام الأوتوبيس، لم تستطع الصمود إثر هذه الفرملة المباغتة، ويسود الاضطراب؛ ليستغل هو ذلك الهرج ليحمل الحقيبة، ويخرج من الأوتوبيس.

فكر في أن يدفن الحقيبة في مكان ما، ثم يعود ليأخذها فيما بعد، ولكنه كان يجب ألَّا يلفت الأنظار إليه خاصًة في حضرة ذلك المرشد السياحي، يعلم كم هو فطن ولماح.

ولكن رأى الفرج أمامه اسمًا على مسمى، الشيخ فرج الرجل الطيب كثّ اللحية ابن بلدته الذي يعمل في نقل الحبوب والغلال من المنصورة إلى القاهرة منذ سنوات، بسيارته النصف نقل بشكل يومي، وقد أدى ذلك الروتين إلى تعرف الشرطة عليه، وصداقته لبعض ضباط وأفراد

الكمائن التي يمر عليها يوميًّا؛ فكان رجلًا موثوقًا فيه، حتى إنه كان لا يُفَتَّشُ بأي حال، ويُسمح له بالمرور بمجرد رؤيته.

ذهب السائق إليه، واحتضنه، وبعد أن سأل عن حاله وحال ذويه طلب منه أن يوصل تلك الحقيبة إلى أمه في قريته، لم يتردد الشيخ فرج في قبول ذلك الطلب، وحمل الحقيبة، ووضعها بجانبه في السيارة، وانطلق بعد أن قام بتموين سيارته، وصعد السائق إلى الأوتوبيس بعد أن قام أيضًا بتموين سيارته؛ حتى لا يثير الشبهات حوله، وانطلق بعربته الكبيرة، وكان الشيخ فرج على بعد خطوات منه، وقد استوقفه الكمين قليلًا، رأى الضابط وهو يصافحه بابتسامة ودودة، ثم لَوَّحَ إليه بالانصراف، وقبل أن يغادر الكمين انطلق الانفجار من سيارة الشيخ فرج الذي أطاح بكل شيء، وطارت أجساد أفراد الكمين في الهواء نحو ثلاثة أمتار، ثم سقطوا وسط النيران المتأججة، وتناثرت الأشلاء، وعلت الصرخات والصيحات، وتوقف سائق الحافلة مذهولًا، أما الأكثر ذهولًا فكان ذلك اليوناني العجوز الذي كان مُكَلَّفًا بوضع تلك الحقيبة في هذا

الأوتوبيس ليقوم بتفجيره بعد أن يتقاضى النقود التي كانت بحوزة القنبلة في نفس الحقيبة.

ترى هل هذه قنبلة أخرى أم أنها نفس القنبلة؟ ولكنها أدت عملًا آخر لا يقل أهمية عن العمل التي كانت مخصصة من أجله، وقد أذاعت الصحف والمحطات ووكالات الأنباء جميعًا خبر قيام الإرهابي الجبان فرج منصور بتفجير أفراد الكمين بالكامل عن طريق قنبلة كان يحتفظ بها في سيارته.

الزائر

تحلقت القطط في دائرة كبيرة حول قطع الدجاج النيِّئ، بينما وقف أبو عامر يراقبهم في حُنُوٍّ. كان ذلك بجانب مكتبته الصغيرة التي يبيع من خلالها الأدوات المدرسية والكتب الخارجية، وكان ابنه عامر يديرها من الداخل، وظلَّ هو يراقب القطط الجوعى، وهي تتناول وجبتها في نهم.

جلس على مقعد مجاور لدكانه مُمَدِّدًا رجليه، تزين وجهه ابتسامات الرضا والراحة، يرفل في جلباب شتوي فضفاض، ينظر تارة إلى الشارع، وتارة إلى ضيوفه الدائمين، كان سعيدًا جدًّا بحياته البسيطة الهادئة التي اختارها منذ أعوام كثيرة، تاركًا خلفه القاهرة بزحامها، وصخبها، وشعبها؛ ليستقر في قلب الصعيد.

راهن الكثيرون على أنه سوف يمل، ويعود أدراجه، ويقلع عن قراره بعد أشهر قليلة، ولكنه كسب الرهان بعد مرور تلك السنوات العشرة التي قضاها هنا في قرية الأشراف بمحافظة قنا، أتاها أعزب، ثم تزوج من ابنة الحاج عبد التواب أحد المزارعين البسطاء لتنجب له أولاده الأربع.

كانت الشمس تلملم ثوبها، ليتسلم الليل نوبته في الميعاد المحدد دون تأخير ولا تقديم، كان الغريب القادم رجل خمسيني يرتدي معطفًا أسود حتى ذاب جسده في جوف الليل، يسأل المارة عن وجهته إلى أن استقر به المقام أمام المكتبة.

- السلام عليكم.
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.
- حضرتك الأستاذ تامر شعبان؟
- قال وعلى وجهه بعض الانزعاج.
- نعم، أنا يا بك، اؤمر.
- أنا جابر شفيق محامي والداتك السيدة ...

عند هذه الكلمة قفز تامر من مقعده، وأمسك الرجل من مرفقه مبتعدًا عن الدكان، وهمس بصوت غاضب:

- اخفض صوتك بالله عليك، ماذا تريدون مني؟ لماذا لم تدعوني وشأني؟

تعجب الرجل قائلًا:

- ماذا تقصد يا بني؟ خَبِّرْني، ثم أنني ضيفك أيها الرجل الشهم، هل تعاملون ضيوفكم هكذا؟
- لا تؤاخذني يا أستاذ، معذرة، مكانتك فوق الرأس.

(قالها وهو يرخي يده).

ثم تلفت تامر حوله بارتياب قائلًا:

- تعالَ معي لنتحدث في مكان آمن، ولكن معذرة يا سيدي، لا تجاورني في الطريق، امشِ ورائي حتى نصل إلى البيت.

لم تفارق الدهشة وجه المحامي الذي كان يتتبع تامر الذي كان لا يكف عن الالتفات يمينًا ويسارًا طيلة الطريق، وينظر خلفه بين دقيقة وأخرى مبتسمًا بود لضيفه، إلى

أن وصلا إلى البيت بعد مسافة ليست بالقليلة، كانت تستحق الركوب، وولج تامر باب البناية التي يسكن فيها، والمحامي خلفه ببضع خطوات، وأمام باب الشقة أدار المحامي ظهره ليتيح الفرصة لتامر أن يستعد؛ لمَّا لمس فيه حرصًا زائدًا، وبعد لحظات سمع صوت تامر من خلفه:

- تفضل يا أستاذ.

فدخل المحامي، وكان تامر يكرر جملة: أهلًا وسهلًا، قنا نورت، كان يكرر كلمات الترحاب كثيرًا كأنما يريد أن يعوض الرجل عن طريقة الاستقبال الغريبة، وأجلسه في حجرة الضيوف التي كانت تحوي صالونًا مذهبًا، وصورة على الحائط لرجل صعيدي عجوز، وقف المحامي يتأمل ملامحه البائسة إلى أن باغته تامر من خلفه قائلًا:

- إنه والد زوجتي الحاج عبد التواب – رحمه الله –.
- تفضل يا أستاذ، (قالها وهو يشير إلى أحد المقاعد المذهبة، ويضع صينية الشاي التي كان يحملها على المنضدة التي كانت تتوسط الحجرة).

- كان رجلًا طيبًا، له عليَّ فضل كبير أكثر من أهلي.

اندهش جابر قائلًا:

- ليس لهذه الدرجة يا أستاذ تامر، لا يوجد من هو عوض عن الأب والأم أبدًا،

تجاهل تامر الكلام قائلًا:

- اشرب الشاي وهو ساخن يا أستاذ.

ثم قال بصوت خافت:

- وبالله عليك لا تناديني باسم تامر هذا؛ فإني قد نسيته مُذْ زمان طويل، كل الناس هنا تناديني بأبي عامر حتى زوجتي.
- حسنًا يا أبا عامر.

قالها جابر وهو يرتشف رشفة من كوب الشاي الذي غَيَّرَ وجهه؛ فوضع الكوب، وقد بدا الانزعاج على وجهه؛ فقال تامر:

- لا تؤاخذني يا أستاذ؛ فإننا هنا نحتسي الشاي ثقيلًا بلون الحبر، هكذا أهل الصعيد، دقيقة واحدة أعد لك غيره إلى أن يتم إعداد الطعام.
- لا داعي أبدًا يا أستاذ تامر، أقصد يا أبا عامر، أنا لن أستطيع أن آكل أي شيء؛ فليس لدي وقت لهذا، وأمامي سفر طويل.

فقال تامر بغضب:

- والله إن لم تأكل شيئًا فسوف تحرم عليَّ امرأتي إلى يوم الدين، يجب أن نقوم بواجبنا كاملًا؛ فأنت تدخل بيتي للمرة الأولى.

وانصرف تامر حاملًا صينية الشاي، وجلس جابر مستثقلًا مهمته العسرة التي قذفت به إلى آخر البلاد في هذا المناخ الشتوي البارد، وبعد دقائق أتى تامر حاملًا نفس الصينية، وقال لجابر وهو يضع الصينية:

- ذُقْ هذا الكوب، وأخبرني رأيك.

فرشف الرجل من الشاي الجديد، وقال مبتسمًا:

- سلمت يدك، الآن نتحدث في موضوعنا...
- يا أستاذ إنك ضيفي، وزيارتك تشرفني كثيرًا، ولكن أي حديث يخص المرأة المسماة سهام صبري فلا داعي منه مطلقًا.
- ولكنها والدتك!
- اخفض صوتك يا أستاذ، أخشى أن يسمعك أحد؛ فلا يوجد مخلوق هنا يعرف هذه المعلومة.
- كيف ذلك؟ وماذا إِذَنْ أخبرتهم عن أهلك؟
- قلت إنني أنتمي إلى عائلة محترمة، وتوفي أبواي مُذْ سنوات طوال، أم كنت تريديني أن أخبرهم أن أمي هي أشهر راقصة في البلد؟!

هز جابر رأسه متفهمًا في أسى!

- يا أبا عامر، أنا لم أَجِئْ إلى هنا مدافعًا عنها، أو عن وظيفتها، ولكنني جئتك في مهمة واحدة فقط.
- وماهي تلك المهمة يا ترى؟
- أصطحبك معي إلى المستشفى لزيارتها، بالتأكيد عرفت من الجرائد إنها مريضة، وعلى فراش الموت.

فقال تامر في غضب:

- إلى قاع الجحيم إن شاء الله، جهنم في انتظارها.
- يا أخي، لا تَقُلْ ذلك على أمك!
- بالله عليك لا تَقُلْ هذه الكلمة مرة أخرى يا أستاذ، أمي التي التهمت أعين الجميع لحمها، واستمتعت به، وستظل الناس إلى يوم القيامة تشاهدها من خلال الأفلام الداعرة والمسلسلات، أمي التي تتحدث عنها هي من عايرني الناس طيلة عمري بسببها، حتى إنني كنت لا أجرؤ أن أنظر في وجوه كل أصدقائي وجيراني، أستحي من العالم بأسره، أمي هي التي فتنت الملايين، وباعت نفسها للشيطان.

وقال في حزن وقد فاضت عيناه، وتخلى عن خفوت صوته:

- لم أَنْسَ ذلك اليوم، عندما ذهبت لأقبل قدميها حتى تعتزل، وتتقي الله في ولدها، وفي نفسها، وعندما رفضت قمت بتخييرها بيني وبين طريق الشيطان التي كانت تسلكه.

قال – وهو يبتسم بحسرة –: لقد اختارت الفن، وتأتي أنت وتقول لي إنها أمي!

ساد صمت قطعه تامر، وهو يومئ برأسه لزوجته التي كانت في الخارج لا يراها جابر، وقال:

- تفضل يا أستاذ لنتناول الطعام.
- صدقني أنا لست ...
-طلاق من زوجتي ...
- حسنًا حسنًا، لا تقسم، هيا بنا.

وجلسا على السفرة التي كانت تنوء بأطايب الأطعمة التي كانت برامات الأرز المعمر، وجبلين من اللحوم، وبطة كبيرة كانت تتوسط المائدة.

- تفضل يا أستاذ، لا تستحِ، عندنا في الصعيد لا يصح أبدًا أن تغادر المائدة وقد بقي في الأطباق طعام.

فضحك الرجل، وقال:

- معذرة يا رجل، تجاوز عني هذه المرة، ولا تلزمني بعاداتكم؛ فلدي بعض المشكلات بسبب أمراض

الكوليسترول والقلب، أنا فقط سوف أتناول لقيمات بسيطة حتى لا أغضبك.

- حسنًا، افعل ما يحلو لك.

قالها تامر وهو يمد يده إلى البطة الكبيرة التي اقتطع منها جزءًا كبيرًا ليضعه في الطبق الفارغ أمام جابر الذي تمتم بكلمات الشكر قائلًا:

- ولكنني لاحظت شيئًا يا أبا عامر، لقد تعاملت بحكم عملي مع الكثير من أبناء الصعيد، وأشعر أن لهجتك ما زال بها الكثير من الألفاظ القاهرية.

قال تامر في خجل:

- للأسف يا بك إلى الآن وبعد كل هذه السنوات لم أستطع إتقان اللهجة الصعيدية جيدًا، ولكنني أحاول باستمرار، ثم قال في فخر: ولكن أبنائي الأربعة يتحدثون بلهجة أهل الصعيد أفضل مني بكثير.
- ولماذا لا تتحدث بلهجة القاهريين فما المشكلة؟
- وبماذا أفادتني القاهرة وأهلها حتى أتحدث بلهجتهم، الصعايدة هم أهلي يا أستاذ جابر؛ فقد عشت بينهم

عشر سنوات. الرجل الذي رأيت صورته مُذْ قليل لم يسألني يومًا مَنْ أبي أو مَنْ أمي، ولم يطلب مني مهرًا، أو شبكة، أو عرسًا كبيرًا عندما جئت لأتزوج ابنته، الصعايدة هم أصحاب القلوب النقية. الرجل منهم يساوى عشرة رجال من رجال القاهرة.

تنحنح جابر في حرج؛ فانتبه تامر إلى وقوعه في الخطأ.

- يا لحماقتي! لا تؤاخذني يا بك، معذرة، ثم قال ضاحكًا: ألم أقل لك الصعايدة قلوبهم نقية؛ فلا يجيدون المجاملات، أو تزيين الكلمات.
- حسنًا، فلقد أصبحتَ الآن صعيديًّا أصيلًا.

وضحك الرجلان، وبعد الانتهاء من الطعام الذي لم يدم الجلوس حوله طويلًا عادا إلى الحجرة الأولى، وافتتح جابر الكلام.

- الآن قد احتسيت الشاي، وتناولت الطعام؛ حتى لا أغضبك، فوجب عليك أنت أيضًا أن تجبر خاطري.
- خاطرك فوق الرأس يا بك؛ بالرغم من أنني أقابلك

للمرة الأولى فإنني أحببتك؛ فيبدو من سمتك طيبة القلب، وحسن الخلق، ولكن لا تؤاخذني ما الذي أجبرك أن تعمل في هذه الوظيفة المشينة؟

- المشينة!!

- سامحني بالله عليك، أقصد أنك بالتأكيد في عمل المحاماة هذا تتعامل مع اللصوص، وتجار المخدرات، ثم قال في حزن: والراقصات.

قال جابر مبتسمًا كالأب الذي يُعَلِّمُ ولده:

- حسنًا يا أبا عامر، وهل أنت تعرف جميع الزبائن الذين يردون إلى المكتبة؟

- بالطبع لا.

- هل تستطيع أن تخترع نظامًا يجعل اللصوص والسيئون لا يشترون بضاعتك؟

- مستحيل.

- أنا كذلك أيضًا، بحكم عملي أتعامل مع الناس كلهم، لكنني لا أقبل أية قضية إلا أن كنت مقتنعًا تمامًا ببراءة موكلي، ولكنك لن تستطيع أن تتهرب من مطلبي.

- أنت تطلب المستحيل يا أستاذ؛ فلو طلبت مني أن

أحرق جسدي؛ يكون الحرق والموت أهون عندي من ذلك الطلب.

- لهذه الدرجة؟!

- وأكثر، فأنت لم تجرب أن يدمر حياتك شخص ما، ويجعلك تمقت نفسك والدنيا بكل من فيها، كنت أجلس في حجرتي أبكي كالنساء لساعات طويلة. لا أجرؤ أن أشكو جرحي لأحد، ولا أستطيع كتمان معاناتي، لا أستطيع أن أصف لك إحساسي وأنا شاب عندما كنت أجالس أصحابي في المقهى، وفجأة يعرض التلفاز فيلمًا، أو مسرحية لأمي، وهي ترقص عارية الجسد، وتتمايل كالأفعى لتغوي الرجال، وتثير غرائزهم، وأجد الناس تنظر بعين على الراقصة، والعين الأخرى تنظر لابنها الذي يتشبه بالرجال، ويجلس في مجالسهم، لم يشفق عليَّ أحد منهم، ولكنهم كانوا يسخرون مني جميعًا، حتى إنني ذات مرة نهضت غاضبًا، وضربت أحدهم ضربًا مبرحًا حتى أشرف على الموت، لولا أن الناس قاموا بنزعه بصعوبة شديدة؛ لكنت قتلته، ومضيت باكيًا؛ فما كنت أملك وقتها غير البكاء.

- أنا لن أدافع عنها، ولكنني أود أن أذكرك أنه يوجد من هو أسوأ منها بكثير.
- أسوأ منها!! وما هو أسوأ من امرأة تعري جسدها أمام العالم لتتكسب من ذلك، وتدمر حياة أقرب الناس لها، أنا وأختي علا التي اضطرت إلى الغربة؛ فتركت مصر بأكملها، وقامت بعمل هجرة لدولة كندا، أخبرني هل يوجد من هو أسوأ من ذلك؟
- نعم، يوجد، الكفر بالله، ومع ذلك قال - سبحانه وتعالى:

﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾

وكما علمنا الرسول - عليه الصلاة والسلام - أنه ليس بعد الكفر ذنب؛ فإن الكفر أسوأ من جميع ما رويته لي أنت، وحتى في حالة الكفر فقد أوصى المولى الأبناء بالمعروف في الدنيا تجاه آبائهم وأمهاتهم.

أحس تامر بقوة حجة جابر، ولكنه قال مكابرًا:

- كلامك صحيح يا أستاذ، ولكنني لا أستطيع، أشعر بالاختناق كلما تصورت أنني أراها مرة أخرى.
- اسمعني جيدًا يا بني، فإنني لا أعرف والدتك مُنْذُ وقت طويل، ولكنها قد أتت إليَّ لأسجل لها قطعة أرض في منطقة الهرم، كانت قد اشترتها منذ فترة.
- الهرم!! بالتأكيد لتبني فوق هذه الأرض «كباريه»!

تجاهل جابر جملته، وواصل:

- في البداية أنا لم أكن متحمسًا للعمل معها، ولكنني وافقت عندما علمتُ أنها تريد أن تبني فوق هذه الأرض جامعًا كبيرًا، ومستوصفًا خيريًّا يعالج الفقراء. وبالرغم من سني المتقدمة وشعرى الذي شاب فإني تعلمت حينها أن الإنسان مهما كان سيئًا؛ فإنه يظل بداخله بذرة طيبة، وبالرغم من آثامه فإننا نجد أنه يحب الخير، ويخاف ممن خلقه، لقد جئت لك اليوم، وأمضيت في القطار سبع ساعات متبرعًا، ودون أن يُطلَب مني ذلك، جئت عندما أحسست أنني في إمكاني تحصيل الأجر والثواب العظيم عندما أكون سببًا في أن تبر أمك في أيامها الأخيرة في الدنيا، ومن

يدري؟ ربما تكتب لها التوبة عندما تراك، وتندم على ما فعلت قبل أن تموت، وتكون أنت صاحب الفضل في ذلك.

- حسنًا، أنا موافق.

فتهلل وجه جابر، ثم استوقفه تامر:

- ولكن بشرط...
- وما شرطك؟
- أن تخلو حجرتها تمامًا من جميع الزوار قبل أن أذهب، لا أريد أن يراني صحافيون أو فنانون.
- لك ما تريد.

فنهض تامر وهو يقول:

- إِذَنْ أذهب لأبدل ملابسي لأعود في الليل؛ حتى لا يشعر أحد بشيء.

وبعد دقائق بسيطة كان تامر يهرول بجانب جابر في الشارع؛ ليلحق بالقطار، فقال جابر:

- لا يهم إن لم نلحق بالقطار؛ فإننا نستطيع استئجار سيارة خاصة تقلنا إلى هناك.

- سيارة خاصة إلى القاهرة! ستكون بمبلغ كبير.
- لا تهتم بهذه الأمور، سأتكفل أنا بالمصروفات.

فوقف تامر فجأة قائلًا:

- اسمع إِذَنْ يا أستاذ، شرطي الثاني الذي لم أقل لك عليه أن أقوم أنا بتحمل جميع مصروفات هذه الرحلة، وإلا فتطلق زوجتي.

فابتسم جابر قائلًا:

- حسنًا يا أبا عامر، موافق دون أن تقسم بالطلاق، هيا بنا نلحق بالقطار.

وتمكنا من اللحاق بالقطار المتجه للقاهرة، وقَضَيَا مع بعضهما وقتًا لا بأس به، يتحدثان في شتى الموضوعات، وأحس تامر بالألفة تجاه جابر المحامي، وعندما وصل القطار محطة رمسيس؛ قام جابر بمهاتفة إيناس مرافقة والدة تامر يبلغها بأن تصرف جميع الموجودين في المستشفى؛ وفاءً بوعده لتامر، ووَصَلَا إلى المستشفى الخاص، مستشفى تصلح لأن تكون قصرًا عظيمًا، لها

مدخل فخم، وشرفات تعكس هندسة معمارية رائعة، حتى إن موظفي الاستقبال كانوا من الوجاهة بما يساعد المرضى على الاستشفاء، وكان تامر النازح من قلب الجنوب مفتونًا بما يراه؛ فقد فقدت عيناه تلك المناظر الرائعة منذ أعوام طويلة، اصطحبه المحامي إلى غرفة والدته التي كانت في الدور الثاني، الدور الذي توقف المصعد أمامه، وأمام الغرفة كانت تجلس إيناس السيدة الأربعينية التي ترافق والدة تامر أينما راحت، في عملها، أو البيت، أو المستشفى، تقوم بعمل اللبيسة، والصديقة، وكاتمة الأسرار.

كان تامر يعرفها جيدًا، وعندما رآها تسمر، ونحى وجهه عنها، ولكنها بادرت واقفة لما وجدتهما أمامها:

- مرحبًا بك يا أستاذ تامر، حمدًا لله على سلامتك.

فقال تامر باقتضاب كأنه يقذفها بحجر:

- سلمك الله.

واصلت إيناس بوجه منتشٍ.

- الست سهام ستفرح جدًّا عندما تراك.

قال جابر المحامي:

- هل يوجد أحد بالداخل؟
- إنه الطبيب، لقد دخل حجرتها قبل دقائق.
- إِذَنْ تعالَ يا أبا عامر نحتسي شيئًا في الكافيتريا لحين خروج الطبيب.

كانت كافيتريا أنيقة صغيرة، تقبع في الدور الأرضي من المستشفى، طَلَبَا الشاي، وشدد تامر على أن يكون الشاي ثقيلًا جدًّا بملعقة سكر واحدة، واستأذنه جابر للذهاب إلى دورة المياه، وجلس تامر يفكر فيما يفعله الآن، واندهش لشعوره، ولأول مرة برقة وحنين لأمه، وجاء النادل بالشاي، والتقط تامر الكوب شديد القتامة، فكم كان مشتاقًا إلى ثمة أشياء تذكره بالصعيد وعاداته! وقبل أن ينتصف الكوب شعر بثقل شديد في رأسه، وغمامات أمام عينيه كأنه يرى العالم من وراء الأمطار، وسمع طنينًا بأذنه، ولم يشعر بشيء بعد ذلك.

استيقظ بعدها ليجد نفسه في حجرة أغطيتها بيضاء، بستائر رمادية، ثقبت أنسجتها أشعة شمس الغروب، لا بد أنها إحدى حجرات المستشفى، ولكن كيف؟ ولماذا؟

كانت إجابة السؤال تتضح حينما شعر بوجع قوي في رأسه، ورأى المحلول معلقًا في كفه.

بقي مذهولًا للحظات، وربما دقائق، لم يكن يستوعب ماذا حدث له. فقد كان في كامل صحته تمامًا، آخر ما يذكره رشفات الشاي في كافيتريا المستشفى، بدأ ينادي بأعلى صوته: مَنْ بالخارج؟ ولكن لم يستجيب أحد، وبعد عدة نداءات بُحَّ فيها صوته أتت الاستجابة من إحدى الممرضات التي دخلت حجرته مهرولة، وعندما رأته قالت له:

- حمدًا لله على سلامتك، ثانية واحدة، سأقوم بإبلاغ الطبيب أنك أفقت من «البنج».

وتركته دون أن ينطق بكلمة، ولم يتخلَّ عن ذهوله إلى أن أتى الطبيب، شاب ثلاثيني يرتدي الملابس البيضاء، فوق عينيه نظارة طبية، تصاحبه نفس الممرضة، وقبل أن يقوم بعمله بادره تامر حينما رآه:

- ما الذي أتى بي إلى هنا؟ أريد أن أعرف ماذا حدث لي؟

- حاول أن تستريح الآن، وستعرف كل شيء.
- أنا لن أستريح يا دكتور قبل أن أعرف؛ لقد جئت إلى المستشفى ماشيًا على قدمي، ما الذي أوصلني إلى تلك الحال؟

ولما رأى الطبيب ثورته العارمة التي لا قِبَل له بها قال:

- حسنًا، اهدأ، سوف آتي بمن يشرح لك كل شيء.

وانصرف الطبيب مسرعًا؛ خوفًا من هذا المريض الثائر، وتبعته الممرضة.

وانفتح الباب بعد عدة دقائق لتدخل نجمة اليوم وكل يوم: الفنانة الاستعراضية، والراقصة اللولبية، وريثة تحية كاريوكا، وسهير زكي، وكل هذه الألقاب التي كان تامر يبكي حينما يسمعها عن والدته، متكئةً على عكازها، ترتدي جلبابًا أبيض، عليها مظاهر الشيخوخة بادية، تغيرت كثيرًا عن آخر مرة رآها فيها منذ عشرة أعوام؛ فقد تجنب منذ آخر لقاء أن يراها في تلفاز، أو مجلة؛ لذلك لم يشترِ تلفازًا في بيته أبدًا بالرغم من إلحاح زوجته وأبنائه

الصغار؛ خوفًا من أن يصادفها أحدهم يومًا في فيلم، أو مسرحية، ويقارن ملامحها بملامحه؛ فيفتضح أمره.

دخلت عليه تتطاير منها مشاعر الأمومة، تنادي عليه:

- تامر حبيبي، أوحشتني جدًّا، حمدًا لله على سلامتك.
- كيف حالك؟

لم يرد على مشاعرها وقبلاتها إلا بهذه الكلمة التي خرجت باردة سمجة. وجلست على مقعد بجوار سريره، تشحذ عيناها شيئًا من حنانه المفقود، ولم تجد، وسألها بعد لحظات صمت:

- ما الذي حدث لي؟ أنا جئت لأراكِ مع جابر المحامي، والشاي الذي احتسيته ربما كان مسمومًا أو به شيء ما، لا أدري.
- ألم يخبرك جابر؟
- ماذا كان عليه أن يخبرني؟ كل ما حدث أنه جاء لي إلى قنا؛ لإقناعي للسفر معه؛ لأراكِ لأنكِ مريضة، لم يقل شيئًا آخر سوى ذلك.

كانت تتحدث مضطربة متوترة.

- لقد طلبت منه أن يصارحك بالحقيقة، لقد نفذ ما كان ينتوي عمله، ولم يأخذ بكلامي. سامحك الله يا جابر!

فقال تامر بعصبية:

- أخبريني ماذا حدث؟ ما الذي تخبئونه؟
- أنا الذي سأشرح لك كل شيء يا أبا عامر.

كان جابر من نطق بهذه الجملة، وهو يدخل الغرفة، وأكمل قائلًا وهو يتحرك ناحية تامر:

- عذرًا، بالفعل السيدة والدتك كانت تريد مني إخبارك، ولكنني آثرت ألَّا أخبرك؛ حرصًا على حياتها.
- ماذا خبأت أيها الرجل؟ انطق!
- أولًا أحب أن أعرفك أنني فعلًا اسمي جابر شفيق، وبالفعل أعمل محاميًا، ولكن ما لا تعرفه أنني زوج والدتك.

سكت تامر قليلًا، ثم قال بغضب:

- لا يهم، معلومة لا تعنيني في شيء، لست أول شخص، ولن تكون الأخير.

- سامحك الله يا بني! (قالتها الأم).

واصل جابر كأنه لم يسمع شيئًا.

- في الحقيقة عندما فشل الأطباء في إيجاد متبرع مناسب بالنخاع الشوكي الذي كانت والدتك في أشد الاحتياج إليه؛ أشاروا علينا بالبحث عن أحد أقاربها ليتناسب مع حالتها، عن أخيها أو ابنها، وللأسف بما أنها لا يوجد لها إخوة حاليًا على قيد الحياة؛ فلم نجد سواك.
- ماذا؟! معنى ذلك أنني قد تبرعت بهذا العضو الذي تذكره دون موافقتي!! دون علمي!! أيها اللصوص الكلاب، والله لن أرحمكم أبدًا؛ لقد جئت إلى هنا على مضض لزيارتك؛ أيكون هذا جزائي؟!

كان الغضب يشتعل في خلايا تامر، بينما كانت الأم تبكي بدون صوت.

- أنا لم أتخيل أن رجلًا في شهامتك يحمل أخلاق أبناء الصعيد، به من المروءة والنخوة ما رأيت يتخلى عن إنسان يموت، خاصة إن كان هذا الإنسان هو أمه!

- نعم، يكون ذلك بموافقتي وبرضاي، وليس غصبًا مثل البهيمة التي تؤخذ من مخدعها؛ لتذبح دون أن تدري.
- لقد خفت ألا توافق.
- فتقوم سيادتك بتخديري؛ لتفعل بي ما تريد دون أن تكلف نفسك عناء الطلب!

قالت الأم باكية:

- لقد طلبت يا جابر ألا تفعل ... ليتني أموت ليرتاح الجميع.

قال تامر بغضب:

- ليتك! ليتك متِّ منذ زمن وأرحتني من مصائبك، أدعو الله أن يميتك ويريحني منك، لقد تركت لك القاهرة بكل شيء فيها، وذهبت إلى آخر الدنيا، وجئتِ تبحثي عني؛ لتقطعي جزءًا مني، بالطبع لتقومي بعد شفائك بمواصلة عملك الذي لا تستطيعين التنازل عنه أبدًا، لقد تبرعت لك لتواصلي غوايتك وفسوقك.

قال جابر:

- يا أخي، لا يجوز أن تخاطب والدتك بهذه الطريقة؛ فلقد قال الله: **{لا تقل لهما ...}**
- اخرس أنت أيها اللص الديوث، يا زوج الراقصة، لا تأتِ باسم الله وآياته على لسانك النجس، واخرجوا جميعًا من هنا، اتركوني، دعوني وشأني؛ فلم أعد أستطع أن أرى وجوهكم القبيحة!

وبعد أن خرجا جابر وسهام ليتعاتبا في الخارج، ولم يلبثا أكثر من خمس دقائق حتى سمعا صوت ارتطام بالأرض، وصرخات مدوية تهز الكون، ولما جريا نحو النافذة هالهما المشهد، عندما كان تامر ملقى في ساحة المستشفى، غارقًا في دمائه بعد أن قفز من نافذة حجرته.



صندوق النذور

كادت عيناه أن تقفز من تجويفهما، وراح يحملق دون حرج، يتابع السبابة ذات الخاتم الكبير، وهي تدس الورقات المالية فئة المائتين في الفتحة الضيقة لصندوق النذور الخشبي، حاول أن يعد الورقات المندسة، ولكنه لم يستطع، فكانوا سبع ورقات أو ربما أكثر، وتساءل فيما بينه عن هذا الشيء العظيم المنذور الذي تحقق لهذا الرجل، وجعله يدفع كل هذا، وسأل السؤال الأهم إن كان دفع كل هذه الأموال في نذره فكم يمتلك أصلًا؟ فكر عوف أن يتتبع الرجل بعد أن خرج من المسجد ليعرف قصته، ويتعرف على حجم ثروته، لماذا؟ بالطبع ليقوم بحسده بشكل ممنهج ومحايد، فعلى قدر الثروة والجاه يكون الحقد والحسد.

الحقد والحسد والغيرة هذا ما كان يمتلكه عوف تجاه الأغنياء؛ فكان جسده النحيل الذي أكله الدهر، وقدراته الذهنية المحدودة لم يعينوه على الصمود أمام تقلبات الزمان، وعنترية الأيام.

يتخرج المتعلمون من الجامعات؛ ليلتحقوا بالوظائف الحكومية، أو يتبعثروا في طرقات القطاع الخاص، أو حتى في بعض المحلات التي تشترط للتعيين مؤهلًا عاليًا، أو فوق المتوسط للعمل بها.

ويتعلم غير المتعلمين الحِرَف؛ ليتكسبوا أضعاف ما يتحصل عليه أبناء جيلهم من الجامعيين، أو يعيش آخرون في كنف أهلهم الأثرياء.

أما هو فلم يكن واحدًا من تلك النماذج؛ فلم يكمل تعليمه الأساسي، ولم يتعلم حرفة، ولم يكن له أهل يساعدونه، وإنما تفتقت عيناه على أسوار دار الأيتام الذي أُودع به منذ حداثته؛ ليهرب منه بعد ذلك إلى الشارع؛ ليقضي طفولته بين التشرد والتسول، ويتنقل بين الشحاذين والمجرمين إلى أن حط به قطار الأيام بين يدي

الشيخ جلال الذي توسم فيه خيرًا، ووظفه في خدمة مسجد الجبالي، أحد مساجد الصوفية الذي كان يحوي ضريحًا فخمًا في أحد أركانه، كان المسجد صغيرًا جدًّا؛ بحيث إن الضريح كان يقتطع نصف مساحته تقريبًا؛ لتتبقى حجرة مترين× مترين؛ لتؤوي عوفًا خادم المسجد، ثم لا يتبقى سوى مكان الصلاة الذي لا يسع أكثر من عشرين فردًا.

لم يكن عوف يبذل مجهودًا كبيرًا في تنظيف الميضَأَة الصغيرة الملحقة بالمسجد، أو تلميع الكُنُف والمباول القليلة، كان يقتات من صندوق النذور مثله كمثل أي مسكين من الذين كان الشيخ جلال يوزع عليهم أموال الصدقات كل أول شهر هجري، يتحين الفرصة لتجود الظروف عليه بقطعة من اللحم والأرز في عقيقة ما في مسجده، أو في أية مسجد مجاور، يقوم أحيانًا بغسيل بعض السجاد لأهل المنطقة قبيل الأعياد، أو يساعد أحدهم في نقل بعض قطع الأثاث، وكان كل أهل المنطقة يعطفون عليه، ويدخرون صدقاتهم البسيطة لإعانته.

كثيرًا ما كان يتوسل إلى الشيخ جلال أن يجذل له العطاء، وألَّا يساوي بينه وبين الفقراء والمتسولين الذين

يأتون كل شهر؛ ليتقاضوا رواتبهم دون تعب بينما هو من يقوم على خدمة المسجد ورواده وحلقات الذكر التي تقام بشكل دوري، ولكن الشيخ جلال لم يستجب، وكان يتعلل لعوف بأنه يكفيه مبيته بالمسجد دون مقابل.

كان يحلم بأن يؤويه بيت صغير، حتى وإن كان مكونًا من غرفة واحدة فوق أحد الأسطح، صبر كثيرًا حتى نفدت قربة الصبر التي يحملها فوق ظهره، وتَسَيَّد قرينه على قلبه، ونفث الشر في أذنيه منذ أن رأى تلك الأموال الكثيرة التي تم ضخها اليوم في الصندوق، وقد شرد بعيدًا نحو كشك السجائر الذي يود امتلاكه، والحجرة ذات المطبخ ودورة المياه، وإلى الفتاة التي يريدها، وإلى الحياة التي يحياها جميع الناس ما عداه.

نعم، سيسرق، ثم يتوب، ثم يعيد الأموال التي سرقها، وربما يضاعفها أضعافًا كثيرة. ألم ينوِ إخوة يوسف التوبة قبل الشروع في قتلهم ليوسف؟ وقد تابوا في النهاية، ألم يقبل الله توبتهم، ويزكيهم في كتابه الكريم بعد ذلك؟

دارت تلك الأفكار في رأسه كالنحلات الدؤوبة حتى عقد العزم، وبعد صلاة العشاء وقد خلا المسجد من المصلين، وكانت قد اختمرت الخطة تمامًا في رأسه بدأ العمل.

لم تفلح المسامير والدبابيس الرفيعة في التعامل مع قفل الصندوق الذي كان مفتاحه دائمًا وأبدًا بحوزة الشيخ جلال، لا يستأمن عليه أحد؛ لذا فقد استعان عوف بعامود من الحديد الصدئ، استعاره من حداد بالجوار، وأغلق باب المسجد، وراح يضرب القفل الذي كان أمينًا على الأموال، وأبى أن يتنحى بسهولة، ولكنه في النهاية لم يصمد أمام ضربات عوف المصرة على هدفها، واستسلم، ووضع عوف الصندوق أرضًا، وبرك فوقه، وعندما خلع القفل الكبير، وفتح الصندوق؛ تورد وجهه، وتهلل عندما رأى الصندوق متخمًا بالأموال من جميع الفئات، فلم يكن الرجل صاحب الأوراق ذات المائتين هو المتبرع الوحيد، وإنما من الواضح أن المحسنين كانوا كُثُرًا، ودون إهدار للوقت راح عوف يغترف بيديه من الأموال

بعشوائية؛ ليملأ بها جيبيه؛ حتى كانت العملات المعدنية تتساقط من بين يديه، ولم يهتم بها، كانت عيناه تشعان بريقًا، ينم عن جوعه وظمئه الشديدين، وفي أثناء العمل المتواصل تجمدت كل أوصاله حينما سمع صوت الشيخ جلال متأثرًا.

- أهذا هو جزاء المعروف؟!
- كان يقف أمامه، وكان قد دخل إلى المسجد، ولم يشعر عوف به؛ لانشغاله بالصندوق وما يحويه، ونهض من الأرض لا يقوى على النطق بحرف واحد؛ فقد كان متلبسًا بجريمته، ولا مناص من التنصل؛ فاستطرد الشيخ قائلًا:
- كان يجب عليَّ أن أعي أن كلبًا مثلك لا يجوز له أن يدخل بيت الله، سوف أفضح فعلتك في الحي بأكمله؛ ليعرف الناس حقيقة من يقومون بمساعدته والعطف عليه.

واستدار الشيخ جلال ليذيع النبأ في المنطقة، وارتعد عوف لذلك؛ فجرى وراءه، وأمسك بتلابيب عباءته.

- أستحلفك بالله يا شيخ، لا تفضحني، وخذ النقود، ها هي، أما أنا فسأغادر المنطقة، ولن تراني ثانيةً.

ولكن الشيخ دفعه بقوة، ألقته أرضًا بجانب العامود الحديدي الذي عاونه مرة في فتح الصندوق؛ ليعاونه الثانية عندما هوى على مؤخرة رأس الشيخ العجوز الذي سقط غارقًا في دمائه على سجاد المسجد، وراح عوف يصرخ بلا صوت، مصدومًا من هول الجريمة التي اقترفها دون أن يدري، أو يقصد، فكان بالرغم من غلظة الشيخ جلال وقسوته فكان عوف يحبه، ولم يقصد قتله أبدًا.

وقف ينظر إلى الجسد الملقى، وإلى الصندوق المفتوح، وما زالت به بعض النقود التي لم يمهله المرحوم في أخذها، ولم يجد أمامه سوى الهرب، وإلا فإن حبل المشنقة في انتظاره بلا ريب.

ولكن أين يذهب وهو الذي لا مكان له في العالم؟ ولمن يذهب وهو الذي نقشت على جبينه الوحدة منذ ولادته؟ خرج يجري من المسجد بلا هدف ... يتعثر فينكفئ على وجهه، ثم ينهض ليواصل العدو، كان لهاثه

مسموعًا للدنيا بأسرها، راح يتخبط بين أجساد المارة في الشوارع والأزقة، يسابق مجهولًا لا يعرفه، كان يجرى هاربًا من الحياة البائسة التي لم يختَرْها لنفسه، هاربـًا من فضيحته بين المحسنين، هاربـًا من الشرطة، ومن العار الذي سوف يطارده بعد إساءته لمن أحسن إليه يومًا، ومَدَّ له يده بالمعروف، قطع الشوارع والأحياء عدوًا، لم يفكر في أن يركب مواصلات أو يستقل سيارة خاصة، وكان جيبه متخمًا بالأموال، ولكن كان العدو هو وسيلته الوحيدة للخلاص، ولكنه توقف أخيرًا عندما نفدت أنفاسه المتلاحقة، ولم تقوَ قدميه على الاستمرار، راح يفكر في مصيره المظلم الذي ينتظره جراء فعلته النكراء، يعلم أن الهرب لن يجدي؛ فجميع أوراقه الرسمية موجودة في بيت الشيخ جلال، جلس في حديقة عامة بأحد الميادين أصبحت بمرور الوقت مستودعًا للقمامة، وشعر أن حياته لا قيمة لها في حالة السجن أو الهروب، وظل يبكي حتى تحرقت وجنتيه وأجفانه، أوصد العالم أبوابه، وتجبرت دنياه، وظل على هذه الحالة، ولم يعرف عدد الساعات التي قضاها في ذلك المكان، حتى رأى

أمامه وسط الحشائش الناحلة فأرًا ميتًا وحيدًا لا يقترب منه مخلوق، فلاحت الفكرة أمامه في الحال، وقرر أن يتخلص من عذاباته للأبد، ذهب ليشتري سم الفئران من أحد العطارين، وعاد إلى الحديقة، وجلس ينظر إلى القرطاس الصغير الذي يحمل الحل، ولكنه قرر أن يعيد الأموال التي سرقها إلى المسجد؛ حتى ينتفع بها أمثاله من المعدمين، وأن يكون قد أنهى حياته بشيء جيد، وترك المكان الذي أوحى له بالخلاص، وذهب ماشيًا غير خائف إلى المسجد، مشى كثيرًا جدًّا، وعلم أنه استطاع فعل الكثير عندما كان خائفًا، ولكيلا يضعف راح يبتلع السم؛ حتى أجهز على كل الكمية التي كانت بحوزته، وبالرغم من الألم الذي بدأ يعتمل في بطنه فإنه ذهب إلى المسجد بخطوات ثابتة شجاعة كان يفتقدها وهو معافى، واشتد به الألم، واعتصر أمعاءه، إلا أنه واصل المسير، فكان حريصًا أن يموت بداخل المسجد؛ عَلَّ الله يرحمه، وتحامل على نفسه حتى إذا ما كان على عتبات المسجد لم يقوَ على المواصلة، وسقط هزيلًا يتصبب عرقًا يلفظ أنفاسه الأخيرة ... ولكن كان آخر ما سمعه هو أذان الفجر

بصوت الشيخ جلال؛ فاندهش عوف، وعندما نظر بوهن
إلى داخل المسجد وجد الشيخ جلال وقد وقف يؤذن،
وقد غطى رأسه الشاش والضمادات.

الفهرس